



28.2.2015

رولان بارت

الغرفة المضيئة

(تأملات في الفوتوغرافيا)



ترجمة: هالة نمّـر
مراجعة: أنور مغيث

الغرفة المضيئة

رولان بارت

ترجمة : هالة نمر
مراجعة : أنور مغيث



2010

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1464

- الغرفة المضيئة

- رولان بارت

- هالة نمر

- أنور مفيث

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

La Chambre Claire

Par: Roland Barthes

© Éditions de l'Étoile, Gallimard, Le Seuil, 1980

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

Twitter: @ketab_n

بطاقة فهرست إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية	
بارت ، رولان . الغرفة المضيفة / تأليف : رولان بارت ، ترجمة : هالة نصر ، مراجعة : أنور مغيث . ط ١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠ ١٢٠ ص ، ٢٤ سم ١ - القصص الفرنسية . (أ) غر ، هالة (مترجم) . (ب) مغيث ، أنور (مراجع) (ج) العنوان	٨٤٣
رقم الإيداع ٢٠١٠/٥٣٧٩ الترقيم الدولى 978-977-479-956-8 طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية	

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

الفهرس

9	1- خصوصية الصورة
9	2- الصورة خارج التصنيف
13	3- العاطفة: نقطة انطلاق
14	4- المصور والمجال والمشاهد
15	5- الشخص موضوع الصورة
19	6- المشاهد: فوضوية المذاقات
22	7- مغامرة الفوتوغرافيا
23	8- فينومينولوجيا طليقة
24	9- ازدواجية
27	10- الستوديووم والبونكتوم
29	11- الستوديووم
30	12- إعلام
32	13- تلوين
33	14- مباغنة
36	15- إفصاح
39	16- الترغيب
41	17- الصورة المتوحدة
42	18- تزامن الستوديووم والبونكتوم
43	19- البونكتوم: ملمح جزئي
48	20- ملمح لا إرادي
49	21- كشف
51	22- بعد فوات الأوان والصمت
55	23- حقل معتم
59	24- استنراك

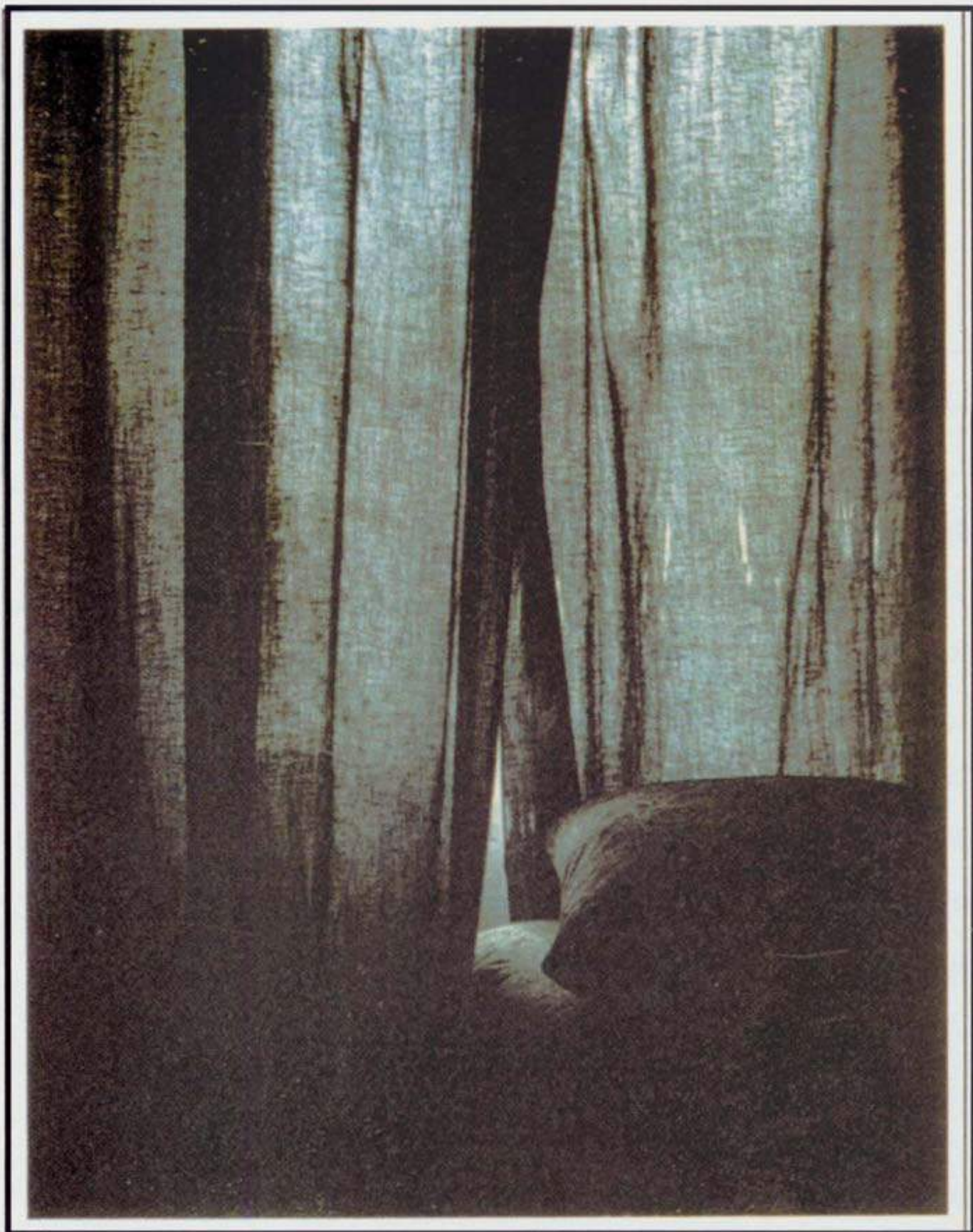
60	25- "فى ليلة"
61	26- التاريخ انفصال.....
62	27- تعرف
64	28- صورة حديقة للشتاء
67	29- الفتاة الصغيرة
68	30- أريان
69	31- العائلة والأم
71	32- " ذلك - كان - موجودا "
72	33- وضع الجسد أمام الكاميرا
74	34 - الأتعة المفيرة واللون
76	35- الدهشة
79	36- للتوثيق
82	37- للركود
85	38 - الموت المسطح
78	39-الزمن بونكتوم
89	40- الخاص/ العام
91	41- استقصاء
92	42- التشابه
94	43- النسب
96	44- الغرفة المضيفة
97	45- السيماء
100	46- النظرة.....
104	47- جنون وشفقة
106	48- ترويض الفوتوغرافيا

رولان بارت

الغرفة المضيئة

(تأملات في الفوتوغرافيا)

إجلالاً لخيال سارتر



دانیال بودینییه Daniel Boudinet:

بولاروید، ۱۹۷۹

منذ زمن طويل، عثرت في يوم على صورة فوتوغرافية لجيروم Jérôme، الأخ الأصفر لنابليون، التقطت له عام (١٨٥٢). قلت لنفسى آنذاك، بدهشة لم أستطع أبداً التخفيف من حدتها منذ ذلك الحين: "إنى أرى العيون التى رأت الإمبراطور". كنت أتكلم أحياناً عن هذه الدهشة، ولكن لما لم يبد أن أحداً يشاركنى إياها، ولا حتى يدركها، فقد نسيتها (الحياة تتكون من تلك اللحظات الصغيرة من الشعور بالوحدة). نحا اهتمامى بالفوتوغرافيا منحى ثقافياً. قررت أننى أحب الصورة الفوتوغرافية أكثر من السينما، رغم أننى لم أتمكن حينها من الفصل بينهما. ألح هذا السؤال، استولت على رغبة "وجودية" حيال الفوتوغرافيا: أردت أن أعرف مهما كلفنى الأمر ما الفوتوغرافيا "فى حد ذاتها"، ما الملامح الأساسية التى تميزها عن عالم الصور. ما كانت تعنيه تلك الرغبة بالنسبة لى هو أنتى، على الرغم من الشواهد التى تبلورها التكنولوجيا والممارسة التطبيقية، ورغم انتشارها المعاصر الهائل، فلم أكن واثقاً من أن الفوتوغرافيا موجودة وأن لديها "عبقريتها" الخاصة بها.

من يستطيع إرشادى؟

منذ الخطوة الأولى، الخاصة بالتصنيف والفوتوغرافيا تتلصص (لا بد من التصنيف، وعرض عينات، لو أردنا إنشاء سجل ما). مختلف التصنيفات التى نخضعها لها هى

في الحقيقة إما إمبيريقية (محترفون/ هواة)، أو بلاغية (مناظر طبيعية، أشياء، بورتريهات، عراة)، أو جمالية (واقعية، تصويرية). وهي على أي حال خارج الموضوع، بدون علاقة بماهيته، التي لا يمكن أن تكون (لو وجدت) سوى الجديد التي هي بمثابة إعلان عنه؛ لأن هذه التصنيفات يمكن أن تطبق على أشكال أخرى، قديمة، من التمثيل. يقال إن الفوتوغرافيا لا تخضع للتصنيف، لذا أتساءل عما تستند عليه هذه الفوضى.

أول شيء وجدته هو أن ما تنسخه الصورة الفوتوغرافية إلى ما لا نهاية لم يحدث إلا مرة واحدة: إنها تكرر ميكانيكياً ما لا يمكن أن يتكرر وجودياً. في الصورة، لا يعبر الحدث مطلقاً نحو شيء آخر: تعيد الصورة دائماً الجزء الذي أحجته للكل الذي أراه؛ الصورة هي الخاص المطلق، والعرض الأسمى، باهتة وبشكل ما ساذجة، تلك الصورة (هذه الصورة وليست الصورة)، هي باختصار "الإبراك الكلي tuché"^(١)، المناسبة، اللقاء، الواقع، بتعبيره الذي لا يكل. ولتعيين الواقع، تقول البوذية sunya^(٢)، الفراغ، وأفضل من ذلك تقول tathata^(٣) أي **تقرُّد اللحظة**. واقع أن تكون هذا، أن تكون ذاك، أن تكون كذلك؛ تعني تات tat في اللغة السنسكريتية "ذلك"، التي تذكرنا بحركة الطفل حين يشير إلى شيء ما بإصبعه وينطق بحروف متقطعة غير مكتملة. توجد الصورة الفوتوغرافية دائماً على طرف هذه الحركة؛ تقول: هذا، هو ذلك، هو ذاك! لكنها لا تقول شيئاً آخر. لا يمكن أن تتحول الصورة (تُنطق) فلسفياً، هي مثقلة بالكامل بالحدوث العرضي التي هي بمثابة الغلاف الشفاف الرقيق له. اعرض صورك الفوتوغرافية على شخص ما؛ سوف يخرج لك صورة على الفور: "أنظر هنا، هذا هو

(١) لاكان Lacan ، ٥٣ - ٦٦ (البيانات الكاملة للمراجع مذكورة في القائمة الموجودة بآخر الكتاب، والأرقام المذكورة تشير إلى الصفحات).

(٢) ذكرت البوذية مفهوم الصفر أي الفراغ أو اللاشيء، الذي يعين الواقع أو يضيف معنى للعمل. (المترجمة)

(٣) آلان واتس Watts ، ٨٥ .

أخى. وهناك، ذاك أنا طفل" ... إلخ ليست الصورة سوى ترنيمة متتالية من "انظروا"، "ها هو"، تشير إلى نوع من المواجهة، ولا تستطيع أن تخرج من هذه اللغة الإشارية الخالصة. ولذلك، بقدر ما هو جائز الحديث عن صورة؛ يتراعى لى أنه من غير المحتمل الحديث عن الفوتوغرافيا.

لا تتمايز صورة ما، فى الحقيقة، أبداً عن مرجعيتها (عمماً تمثله)، أو على الأقل لا تتمايز على الفور أو لكل الناس (هذا ما تفعله أية صورة أخرى، مَعْقُوة منذ البداية بالصيغة التى يظهر بها موضوعها): إدراك الدال الفوتوغرافى ليس مستحيلاً (يفعلها بعض المحترفين)، ولكن ذلك يتطلب فعلاً لاحقاً من المعرفة أو من التأمل. من طبيعة الفوتوغرافيا أن تتضمن شيئاً يبدو تحصيل الحاصل (لا بد بسهولة من تقبل ذلك الاسم العام، الذى لا يحيل فى هذه اللحظة إلا إلى تكرار لا يملُ من الإمكانيات المحتملة): الغليون هو دائماً غليون، وليس شيئاً آخر. يقال إن الفوتوغرافيا تحمل دائماً مرجعها معها، كلاهما مدموغان بنفس الجمود العاشق أو الجنازى، فى قلب عالم دائم الحركة: هما ملتصقان الواحد بالآخر، عضو بعضو، مثل المدان المكبل بجثة فى بعض أشكال التعذيب، أو يتشابهان أيضاً مع أزواج السمك تلك التى تسبح معاً، وكأنه اتحاد فى جماع أبدى (أسماك القرش، أعتقد، كما جاء على لسان ميشليه Michelet). تنتمى الصورة الفوتوغرافية إلى تلك الفئة من الأشياء الصحائفية، حيث لا يمكننا فصل الصحيفتين دون تدميرهما: زجاج النافذة والمنظر الطبيعى، ولماذا لا؟ الخير والشر، الرغبة وموضوعها. ازدواجية يمكننا تصورها، ولكن لا يمكننا إدراكها (لم أكن أعرف أيضاً أن ذلك التشبث بأن يكون المرجع حاضراً يوماً هناك، سوف يظهر الجوهر الذى كنت أبحث عنه).

تجرُّ تلك الحتمية الفوتوغرافيا (لا توجد صورة دون شيء ما أو شخص ما) إلى الفوضى العارمة للأشياء - لكل الأشياء فى العالم. لماذا نختار (نصور) هذا الموضوع، فى تلك اللحظة، دون غيرها؟ لا تخضع الفوتوغرافيا للتصنيف لأنه ليس هناك أى سبب

لوسم هذا الحدث أو ذاك، من الجائز أن الفوتوغرافيا تطمح إلى أن تصبح ذات قيمة، ووثوقاً، ونبلاً مثل العلامة، ممّا يسمح لها بالوصول إلى مكانة اللغة، ولكن حتى يكون هناك علامة، لابد من وجود إشارة؛ ومع حرمان الصور من مبدأ الإشارة، تكون عبارة عن علامات غير راسخة، تتخثر مثل الحليب: أياً كان ما تقدمه كي نتأمله ومهما كان نهجها، فالصورة دائماً لامرئية: فليست هي التي نراها.

باختصار، المرجع يلتحم، وهذا الالتحام الفريد يجعل هناك صعوبة باللغة في ملائمتها للصورة. الكتب التي تبحث في الفوتوغرافيا، عددها أقل كثيراً من تلك التي تتناول أي فن آخر، فهي ضحية هذه الصعوبة. بعض تلك الكتب تقنية؛ ولكي تنجح في رؤية الدال الفوتوغرافي، يلزم تفحصها عن قرب. أمّا الكتب الأخرى فهي تاريخية أو اجتماعية؛ تكون مجبرة للملاحظة الظاهرة الكلية للفوتوغرافيا، أن تتفحصها عن بعد. لقد لاحظت بانزعاج أن أحداً لم يحدثني تماماً عن الصور التي تثير اهتمامي، تلك التي تمنحني متعةً وانفعالاً. ماذا أفعل بقواعد التكوين لمشهد فوتوغرافي، أو على الطرف الآخر، بالتصوير كطقس عائلي؟ في كل مرة كنت أقرأ فيها شيئاً عن الفوتوغرافيا، كنت أفكر في صورة معينة أحبها وكان ذلك يفضيبي، وذلك لأنني لم أكن أرى سوى إحالاتها؛ الموضوع المنشود والجسد العزيز.

ولكن صوتاً مزعجاً (صوت العلم) كان يقول لي بنبرة صارمة: "عد إلى الفوتوغرافيا، ما تراه هنا وما يجعلك تعاني يدخل في فئة "صور الهواة"، حيث يتناولها بالبحث فريق من علماء الاجتماع: ما هي الآثار قواعد اجتماعية للاندماج، مخصصة لإعادة الاعتراف بالعائلة، إلخ". غير أنني أصررت؛ صوت آخر، أكثر قوة، كان يدفعني لكي أنكر الشروحات الاجتماعية؛ في مواجهة بعض الصور، أود أن أكون همجياً، بلا ثقافة. هكذا جرى الأمر معي، لا أجرؤ على اختزال صور العالم التي لا تحصى، ولا عن أن أمتد ببعض صوري الشخصية إلى كل الفوتوغرافيا؛ باختصار، وجدت نفسي في مأزق - وإذا جاز التعبير - وحيداً متجرداً "بالمعنى العلمي".

قلت لنفسى إذن إن هذا الاختلال وهذه المعضلة، التى تكشف عنها الرغبة فى الكتابة عن الفوتوغرافيا، تعكس بشكل كبير نوعاً من عدم الراحة التى خبرتها يوماً: أن تصبح ذاتاً حائرة بين لغتين، لغة تعبيرية، وأخرى نقدية؛ وفى خضم الأخيرة، ممزقاً بين عديد من الخطابات، منها ما يخص الاجتماع، والسيميولوجيا، والتحليل النفسى. ولكن، فى النهاية مع عدم الرضا الذى وجدت نفسى فيه من هذا وذاك، أعربت عن الشئ الوحيد الأكيد لدىّ (مهما كان على قدر كبير من السذاجة): وهو المقاومة الجامعة لأى نظام مختزل. وذلك لأنه فى كل مرة يتم الاستعانة به، كنت أستشعره لغة متصلبة، وبالتالي منزلة نحو الاختزال والقهر، كنت حينئذ أتركها بهدوء وأبحث فى مكان آخر: كنت أشرع فى الحديث بطريقة مغايرة. كان الأفضل، لمرة حاسمة بون رجعة، أن أحول تمسكى بالتفرد إلى حجة، وأجرب أن أجعل ما أسماه نيتشة Nietzsche "السيادة العتيقة للأنثى" مبدأً استكشافياً. عزمت إذاً على أن أتخذ بعض الصور بالكاد كنقطة انطلاق فى بحثى، تلك التى وثقت من أنها ماثلة بالنسبة لى. لا يتعلق الأمر بسجل: فقط بعض القوالب. فى هذا النقاش المعتاد بين الذاتية والعلم، توصلت إلى تلك الفكرة القريبة: لماذا لا يكون هناك، بمعنى ما، علم جديد لكل موضوع؟ علم متفرد (وليس علماً عاماً)؟ قبلت بناءً على ذلك أن أعتبر نفسى وسيطاً لكل الفوتوغرافيا: حاولت أن أصوغ، انطلاقاً من بعض الانفعالات الشخصية، الخط الأساسى، العام الذى بدونه لن تكون هناك فوتوغرافيا.

ها أنا أنصبّ نفسى إذن مقياساً "للمعرفة" الفوتوغرافية. ماذا يعرف بدنّى عن الفوتوغرافيا؟ لاحظت أن صورة ما يمكن أن تكون موضوعاً لثلاث ممارسات (أو ثلاثة

انفعالات، أو ثلاثة مقاصد): أن تفعل، أن تتحمل، أن تتطلع. المصور هو الفاعل Operator. المُشاهد Spectator، هو نحن جميعاً، الباحثون في الجرائد، والكتب، والألبومات، والأرشفات، على مجموعات من الصور. وهذا أو ذاك مما تم تصويره هو الهدف، هو المرجع، من قبيل طيف خافت، هالة العمل المصور eidōlon، الذي أسمىته عن طيب خاطر المجال الشبحي Spectrum للصورة، لأن هذه الكلمة تحتفظ من خلال جذورها بصلة مع "المشهد" spectacle، وتضيف إليه هذا الشيء الذي يبدو مفزَعاً قليلاً في كل صورة: العودة من الموت.

إحدى تلك الممارسات مغلقة أمامي، ولم يكن هناك ضرورة للبحث عن تفسير لها. أنا لست مصوراً، ولا حتى هاوياً؛ إذ إنني غير صبور. لا بد لي أن أرى فوراً ما الذي أنتجته (البولارويد؟ مسلية، إنما مُخيبة للآمال، إلا إذا تدخل في الأمر مصور كبير). أستطيع افتراض أن انفعال المصور (وبالتالي روح الصورة بالنسبة للمصور) له بعض الصلة بـ "الثقب الصغير" sténopé الذي من خلاله يرى، ويُحدد، ويؤطر، ويضع من منظوره ما يريد أن يقبض عليه (يفاجئه). تعد الفوتوغرافيا، تقنياً، عند ملتقى طرق لمسلكين متميزين تماماً؛ أحدهما نظام كيميائي، هو تأثير الضوء على بعض المكونات. والآخر نظام فيزيائي، وهو تشكل الصورة عن طريق جهاز بصرى. يخيل إلي أن صورة المُشاهد تتحدّر أساساً، لو استطعنا القول، من الإظهار الكيميائي للموضوع (حيث أتلقى، بفعل مؤجل، الأشعة)، وأن صورة المصور كانت على العكس موصولة بالرؤية المتقطعة لشباك غالق الغرفة المظلمة camera obscure. ولكن بسبب ذلك الانفعال (أو بسبب تلك الروح) لم أستطع الحديث عن الفوتوغرافيا، لأنني لم أتعرف عليها أبداً؛ لم أستطع الانضمام إلى هذه الجماعة (وهم الأغلبية) التي تتعامل مع الصورة من منظور المصور. لم أمتلك تحت تصرفي سوى خبرتين: خبرة الذات المُشاهدة وخبرة الموضوع المُشاهد.

قد يحدث أن أكون مراقباً بون أن أدري، وعن هذه الخبرة لا أستطيع أن أتحدث أيضاً، بما أنني قررت أن أسترشد بوجوداني كما أعيه. ولكن في أحيان كثيرة (وبمشيئتي في أغلب الأوقات) تم تصويري على دراية مني، بيد أني ما أن أشعر أنني مراقب من قبل العدسة، حتى يتغير كل شيء: أتشكل منشغلاً باتخاذ وضعاً أمام الكاميرا، أصنع لنفسى في الحال جسداً آخر، أتحول سلفاً إلى صورة. هذا التحول هو تحول نشط: أشعر أن الصورة توجد جسدي أو ثميتي، وفقاً لإرادتها الخاصة (مثل عن هذه القدرة القتالة: دفع بعض مناضلي كميونة باريس *communards* حياتهم لشغفهم بأخذ أوضاع للتصوير على المتاريس: فحينما هزموا، وتعرف عليهم رجال الشرطة التابعون لتيير *Thiers*، أطلق النار عليهم جميعاً تقريباً).

حينما أقف أمام العدسة (أريد أن أقول: معرفتي بأنني أقف، حتى ولو على نحو عابر)، لا أتعرض لنفس المخاطرة (على الأقل في هذا الوقت). بلا شك، أن أستمند وجودي من المصور هو من باب المجاز. ولكن رغم أن هذه التبعية متخيلة (ومن مستودع الخيال الأكثر تجريداً)، أعيشها في قلق توالد غير مؤكد: صورة - صورتي - سوف تولد: هل سوف أولد من شخص ثقل الظل أم من "شخص لطيف"؟ لو استطعت أن أخرج على الورق مثلاً على لوحة زيتية كلاسيكية، متحلياً بسيماة نبيلة، متأمة، ذكية، الخ. باختصار، لو استطعت أن أكون "لوحة" (لتيتيان *Titien*) أو "رسماً" (لكلوييه *Clouet*)! ولكن ما أريد أن يدرك، هو نسيج معنوي رقيق، وليست محاكاة، وكما أن الفوتوغرافيا غامضة الدلالة قليلاً، سوى عند كبار رسامي البورتريهات، لا أعرف كيف أجسد ما يجيش في نفسي. أقرر أن أدع ابتسامة خفيفة "تطفو" على شفتي وفي عيني أريد لها أن تكون "غامضة"، بحيث أعبر، في آن واحد عن خصائص طبيعتي، ودرائتي الساخرة بكل الطقوس الفوتوغرافية: أستعد للعبة اجتماعية، أتخذ وضعاً، أعرف اللعبة، أريدكم أن تعرفوها، ولكن لا يجوز لهذه الرسالة الإضافية أن

تزييف بأي شكل كان (من رابع المستحيلات، في الحقيقة) الجوهر الثمين لتفردى: ما أنا عليه، خارج كل صورة. أريد إجمالاً لصورتى، المتحركة، المهزوزة بين ألف صورة فوتوغرافية متغيرة، أريد لها أن تتطابق دائماً مع "نفسى" (العميقة، كما هو معروف) تبعاً للمواقف، والأعمار، ولكن العكس هو ما يجب قوله: هو "أنا" الذى لا يتطابق أبداً مع صورتى؛ لأن الصورة هى التى تبدو ثقيلة، ساكنة، عنيدة (ولهذا يدعمها المجتمع)، وهو "أنا" الذى أبو خفيفاً، منقسماً، مشتتاً، كعفريت العلبة، لا أبقى ساكناً بل مهتاجاً فى إنائى: نعم، لو كان بإمكان الفوتوغرافيا على الأقل إعطائى جسداً محايداً، تشريحياً، جسداً لا يعنى شيئاً! للأسف، أنا محكوم على بالفوتوغرافيا، التى تظن أنها تحسن عملاً؛ أن أمتلك دوماً سيماً؛ لا يجد جسدى أبداً درجته الصفرية، لا يعطيها له أحد (من المحتمل أسمى فقط؟ وذلك لأن قلة الاكتراث ليست هى ما يرفع من شأن الصورة - فكل ما يلزم هو أن تكون الصورة "وصفية"، من نوع الصور الضوئية photomaton التى تجعلك تبدو وكأنك شخص مجرم، تترصده الشرطة - ما يرفع من شأن الصورة هو الحب، الحب المفرط).

بعد فعل أن أرى نفسى (غير النظر فى المرآة): فعلاً حديثاً بالمقياس التاريخى، فقد كان للبورتريه سواء الملون، أو المرسوم، أو المنمنم، محدودية كبيرة حتى انتشار الفوتوغرافيا، بالإضافة إلى أنه كان مخصصاً للإعلان عن مكانة اقتصادية واجتماعية. وفى كل الأحوال، حتى لو شابه البورتريه الأصل بشدة (هذا هو ما أبحث عنه لإثباته)، فهو لا يضاهى الصورة الفوتوغرافية. ومما يثير الفضول أننا لم نفكر فى "اضطراب" (الحضارة) الذى جاء به هذا الفعل الجديد. أريد تاريخاً للنظرات، ذلك لأن الصورة الفوتوغرافية هى حضورى أنا نفسى بوصفى آخر: هى انفصال مراوغ للوعى بالهوية. إلا أن الأكثر غرابة: هى أن المساحة الأكبر لحديث الناس عن رؤية الازدواج، كانت فى الزمن السابق للفوتوغرافيا. لقد تم تقريب ظاهرة رؤية الشخص لجسده أمامه - Heau

toscopie من الهلوسة^(٤)؛ وظلت على مرّ قرون مبحثاً أسطورياً كبيراً، ولكننا اليوم، وكائننا نقمع الجنون العميق للفوتوغرافيا؛ لا تستدعى الفوتوغرافيا إرثها الأسطوري إلا بذلك الانزعاج البسيط الذي ينتابني حين أنظر إلى "نفسى" على ورقة.

هذا الارتباك هو فى عمقه اختلال الملكية، قالها القانون بطريقته: من يمتلك الصورة؟ هل الموضوع (المصور)؟ هل هو المصور؟ أليس المنظر الطبيعي نفسه نوع من الاستدانة لمالك الأرض؟^(٥) وفيما يبدو أن هناك قضايا لا تعد ولا تحصى، أفصحت عن هذا اللايقين فى مجتمع قام وجوده على الملكية، حولت الفوتوغرافيا الذات إلى موضوع، بل إذا جاز القول، إلى موضوع مُتحفى: من أجل التقاط الوجوه الأولى (حوالى ١٨٤٠)، كان صاحبه يرغم على البقاء لفترة طويلة تحت سطح زجاجى فى شمس النهار الساطعة، لقد سببت حالة أن تصبح موضوعاً، معاناة تشبه معاناة العملية الجراحية؛ ولهذا اخترع جهازاً، سُمى مسند الرأس، جهاز غير منظور بالنسبة إلى عدسة الكاميرا^(٦)، كان يسند الجسد ويثبت فى عبوره إلى السكون: سنادة الرأس هذه كانت قاعدة التمثال الذى أوشكت أن أكونه، والمشدّ لجوهرى المتخيل.

البورتريه المصور هو حقل مسيج بالضرورة. تتقاطع أربعة تصورات، وتتجابه، وتتشوه. أكون أمام العدسة فى الوقت نفسه: الشخص الذى أعتقد أنه أنا، والشخص الذى أريد للآخرين أن يعتقدوا أنه أنا، والشخص الذى يعتقد المصور أنه أنا، والشخص الذى استعمله المصور لكى يعرض فنّه. وبكلمات أخرى، هو فعل غريب ما أقوم به: لا أكف عن تقليد نفسى، ولهذا ففى كل مرة آخذ صورة لنفسى (أترك نفسى

(٤) جايرال Gayral، ٢٠٩.

(٥) شيفرييه - تيبودو Chevrier-Thibaudeau (لم يذكر بارت هنا رقم الصفحة واكتفى باسم مؤلف المرجع).

(٦) فروند Freund، ٦٨.

لعدسة الكاميرا)، يمسنى حتماً شعور بانعدام الصدق، وأحياناً بالخداع (مثل ما تسببه بعض الكوابيس). تقدم الصورة على مستوى تخيلى (تلك التى أعنيها) هذه اللحظة شديدة الغموض، حيث للحق أقول لا أكون ذاتاً ولا موضوعاً، ولكن بالأحرى ذاتاً تشعر أنها تصير موضوعاً: أعيش من ثم تجربة مصغرة للموت (قاب قوسين): أصير بالفعل طيفاً. يعرف المصور ذلك جيداً، وهو نفسه يخاف (حتى وإن كان لأسباب تجارية) من ذلك الموت حيث تُحْنُطُنِي إشارته، لا شىء سوف يكون أكثر هزلاً (لو لم أكن الضحية السلبية، الدرع، كما قال ساد Sade) من تقطيبات وجوه المصورين "لتبدو الصورة حيوية": أفكار فقيرة: يجعلوننى أجلس أمام ريشاتى، يأخذوننى إلى الخارج ("الخارج" أكثر حيوية من "الداخل")، يضعوننى أمام درج لأن مجموعة من الأطفال تلعب وراء ظهري، لاحظوا مقعداً وعلى الفور (يا له من حظ) يجلسوننى عليه. يبدو أن المصور المرتعب، لا بد له أن يكافح كثيراً كي لا تُمسي الصورة موتاً. أما أنا، فمازلت موضوعاً، لا أكافح، أتوقع أن على أن أنهض من هذه الأحلام المزعجة بصعوبة أكثر: لأن ما يفعله المجتمع بصورتى، وما يقرؤه منها، لا أعرفه (فى كل الأحوال، هناك قراءات كثيرة لنفس الوجه): ولكن حينما أظهر على منتج هذه العملية، ما أراه، هو أننى لم أصبح إلا صورة، بما يعنى الموت نفسه؛ الآخرون - الآخر - يجردوننى من نفسى، يشيئوننى بضراوة، يبقوننى تحت رحمتهم، رهن إشارتهم، يصنفوننى فى مدوناتهم، استعداداً لجميع الخدع الغامضة: صورنى فى يوم مصور ماهر، اعتقدت أننى أقرأ فى تلك الصورة حزناً لحداد قريب العهد: هذه المرة فقط ردتنى الفوتوغرافيا إلى نفسى؛ ولكنى وجدت تلك الصورة نفسها فيما بعد على غلاف كتيب؛ وعن طريق خدعة الإظهار، لم يبق منى سوى وجه مُروّع لا ينطق بسريرتى، منذر بشرٍّ ومتجهّم مثل الصورة التى يريد مؤلفو الكتاب أن يعطوها لِلْغُتَى (ليست "الحياة الخاصة" إلا هذا النطاق من المكان ومن الزمان، حيث لا أكون صورة، ولا موضوعاً. هذا حقى السياسى أن أكون ذاتاً يجب على حمايتها).

فى حقيقة الأمر، ما أنزع إليه فى الصورة التى تؤخذ لى ("المقصد" تبعاً لما أتطلع إليه) هو الموت: الموت هو جوهر eidos تلك الصورة. أيضاً، وللغرابية، الشئ الوحيد الذى أحتمله، وأحبه، وأنتس به، عندما تلتقط لى صورة، هو ضجيج الآلة. بالنسبة لى، عضو المصور، ليس هو العين (تخيفنى العين)، إنما الإصبع: الموصول بمفصال العدسة، وبالاتزالاق المعدنى للصفائح (طالما احتوت الآلة على أشياء كنتك). أحب هذه الضوضاء الميكانيكية بطريقة تكاد تكون شهوانية، كما لو أن الضوضاء، فى التصوير الضوئى، هى بذاتها - وهى فقط - ما تتعلق به رغبتى، مخترقة بقرقعاتها الحادة الفللة المميتة لوضعية الجسد الساكن. بالنسبة لى، ضجيج الزمن ليس حزيباً: أحب الأجراس، ساعات الحائط، ساعات اليد - وأتذكر أن فى البداية، كانت المعدات الفوتوغرافية مرتبطة بتقنيات صناعة الأثاث وميكانيكا الضبط: كانت آلات التصوير، فى حقيقة الأمر، ساعات جدارية للرؤية، ومن الجائز أنه ما زال يوجد بداخلى، شخص عجوز يستمع إلى الصخب الحى للخشب فى الآلة الفوتوغرافية.

- ١ -

الفوضى التى تحققت منها فى الفوتوغرافيا منذ الخطوة الأولى، وفى جميع ممارساتها وموضوعاتها، عايشته ثانية فى صور المشاهد الذى كنته والذى أردت مساءلتها الآن.

أرى اليوم صوراً فوتوغرافية فى كل مكان، ومثل كل واحد منا؛ تصلنى من العالم، نون أن أطالب بها؛ هى ليست إلا "صوراً"، يتشكّل ظهورها حسبما اتفق، على الرغم من ذلك لاحظت أن من بين الصور التى تم اختيارها، وتقييمها، والتصديق عليها، وجمعها فى ألبومات أو مجلات، والتى تم تمريرها هكذا من مصفاة الثقافة، لاحظت من بين هذه الصور صوراً أثار بعضها فى نفسى ابتهاجاً غير ذى بال، وكأنها كادت تحيل إلى مركز ساكن، إلى قيمة إيرونيكية أو ممرّقة مدفونة بداخلى (مهما كانت الحصافة



" لا تسحرني إلا صورة شتيجلتز الأكثر شهرة ... "

أ. شتيجلتز A.Stieglitz: موقف عربات الخيل. نيويورك، ١٨٩٣

الظاهرة للموضوع)؛ وأن صوراً أخرى، على النقيض، لا أكثر ث لها، مادامت تتكاثر من فرط رؤيتها، مثل العشب الضار، شعرت تجاهها بنوع من النفور، بل السخط: هناك لحظات أبغض فيها الصورة الفوتوغرافية: ماذا على أن أفعل بجذوع شجر أوجين أتجيه Eugène Atget، أو بعراة بيير بوشيه Pierre Boucher، أو بالطباعة المزبوجة لجيرمان كرول Germaine Krull؟ (أنا لا أذكر سوى أسماء قديمة). أكثر من ذلك: أدركت بعمق أنني لم أحب قط جميع الصور التي ينتجها نفس المصور، فالصورة الوحيدة التي تسحرني (إلى حد الجنون) صورة شتجلتيز Stieglitz الأكثر شهرة (موقف عربات الخيل، نيويورك، ١٨٩٢)؛ وتحملني بعض صور مابلثورب Mapplethorpe على الاعتقاد بأنني وجدت "مصورى"؛ ولكن لا، أنا لا أحب كل أعماله.

لم أستطع إذًا الوصول - فى ظل تلك الفكرة المريحة، مادمننا نريد الحديث عن التاريخ، والثقافة، وعلم الجمال - إلى ما يطلق عليه أسلوب الفنان. شعرت، من خلال قوة تركيزى، بفوضويتها، وبمصادفاتها، وبغموضها، أن الفوتوغرافيا فن يفتقر إلى اليقين، مثلما يكونه حال علم للأجساد المشتهاة أو المقوتة (لو عزمنا الأمر على إنشائه).

لقد رأيت بوضوح أن الأمر تعلق هنا بحركات نابعة من ذاتية سهلة، تنتهى، بمجرد أن يقال: أحب / لا أحب: من منّا لا يملك فهرسه الداخلى للمذاقات، للنفور، للامبالاة؟ لكن بالتحديد: دائماً ما كنت أرغب فى البرهنة على أمر جتى؛ ليس لتبريرها، وبدرجة ما ليس لملء مشهد النص بفرديتى؛ ولكن على النقيض، لإهداء هذه الفردية ومدتها إلى علم للذات، علم لا يهمنى اسمه كثيراً، بشرط أن يصل إلى عمومية (لم تتمثل بعد) لا تختزلنى ولا تسحقنى، كان يجب إذن التحقق من الأمر.

قررت إذن أن أعتبر الانجذاب الذي أشعر به تجاه بعض الصور دليلاً لتحليلي الجديد. لأنني دلي الأقل، كنت على يقين من حدوثه. ماذا أسمىه؟ الافتتان؟ لا، فهذه الصورة التي أنصّلها وأشغف بها لا تشترك في شيء مع النقطة البراقة التي تتأرجع أمام عينيك وتدير رأسك؛ ما تولّده في نفسي هو النقيض التام للبلادة؛ بالأحرى خضخضة داخلية، فرح، مخاض ما، ضغط ما لا يمكن أن يوصف حين يريد أن يفصح عن نفسه. إذن؟ هي الفائدة؟ هذا غير كاف؛ لا أحتاج إلى أن أستمط مشاعري لكي أعدد الأسباب المختلفة للاهتمام بصورة ما؛ يمكننا: سواء رغبتنا في الشيء، أو استمالنا منظر ريفي، أو اشتهينا الجسد الذي تعرضه الصورة؛ سواء كنا نحب أو أحببنا الكيان الذي تسمح لنا بالتعرف عليه؛ سواء اندهشنا لما نراه؛ أو أعجبنا بأداء المصور وتبادلنا الحديث حوله، إلخ... إلا أن هذه الفوائد تتسم بالهزل، والتنافر؛ قد ترضى صورة كتلك أحدهم ولا أكثرث لها كثيراً؛ ولو أن صورة غيرها أثارت اهتمامي بقوة، سوف أرغب في معرفة ما أوقفني فيها. أيضاً، بدا لي أن أفضل كلمة تشير (بصفة مؤقتة) إلى الانجذاب الذي يملكني تجاه بعض الصور، هي كلمة **المغامرة**، هذه الصورة **تحلّ** في نفسي، وتلك لا.

يسمح لي مبدأ المغامرة بأن أحيي الصورة. وعلى العكس من ذلك، لا توجد صورة فوتوغرافية دون مغامرة. أذكر عن سارتر أن: "الصورة الصحفية قد لا تعني لي شيئاً على الإطلاق، وذلك يعني أنني أنظر لها دون أن تشير لدى أية تساؤلات وجودية. في حين أن الأشخاص الذين أرى صورهم هم بالتأكيد حاضرون في الصورة، ولكن بدون مكانة وجودية، تماماً مثل الفارس والموت، الماثلين في نقوش ديورير Dürer، ولكن بدون أن أعيرهما انتباهاً خاصاً. بالإضافة إلى ذلك تحدث حالات تتركز الصورة فيها في حالة ما من اللامبالاة، إلى درجة أنني لا أتحقق حتى من كونها "صورة". الصورة هي التالف المُبهم لموضوع، والأشخاص في الصورة يتشكلون تماماً بصفاتهم شخصاً،

ولكن فقط بسبب مشابھتهم للبشر، دون أى قصدية خاصة. يترددون بين مراسى الإدراك، ما بين العلامة والصورة، دون الدنو نهائياً من أيهما.

فى هذه الصحراء القاحلة، تصلنى صورة ما، دفعة واحدة؛ تحيينى وأحييها. وهكذا إذاً يجب على أن أسمى الانجذاب الذى أوجدها: إحياء. ليست الصورة نفسها حية بأى معنى (أنا لا أعتقد فى الصور "الحية") ولكنها تحيينى؛ هذا ما تفعله كل مغامرة.

- ٨ -

فى هذا التقصى عن الفوتوغرافيا، أعارتنى الفينومينولوجيا بناءً عليه شىء من مشروعها وشىء من لغتها. ولكنها كانت فينومينولوجيا مُبْهَمة، طليقة، مُتَهَكِّمة أيضاً، كثيراً ما كانت تقبل تشويه مبادئها أو مواراتها تبعاً لهوى تحليلاتى. قبل كل شىء، لم أتخلص ولم أحاول التخلص من مفارقة ما؛ فمن ناحية الرغبة فى النهاية فى إمكانية تعيين جوهر للفوتوغرافيا، وبالتالي التخطيط لحركة علم استحضارى *eidetique* للصورة، ومن ناحية أخرى الشعور العنيد بأن الفوتوغرافيا، إن جاز القول (بتناقض مع المصطلح) ما هى إلا مصادفة، وتفرد، ومغامرة^(٧) (تتناقض الألفاظ فيما بينها). شاركت صوري دائماً، عن آخرها، فى "شىء أو آخر": أليس عجز الفوتوغرافيا نفسها، والذى أوجد هذه الصعوبة، هو ما يطلق عليه المؤلف؟ وبعد، وافقت فينومينولوجيتى على التورط بقوة العاطفة؛ كانت العاطفة هى ما لم أرد أن أختزله، ولكونها غير قابلة للاختزال، كانت بذلك هى ما أردت. فتعين على اختزال الصورة وفقاً لها. ولكن هل يمكن الاحتفاظ، بقصدية عاطفية، برؤية للموضوع متشعبة مباشرة بالرغبة، بالصد،

(٧) ليوتارد Lyotard، ١١

بالحنين، بالانتشاء؟ الفينومينولوجيا التقليدية، تلك التى عرفتھا فى مراهقتى (ومنذ ذلك الحين لم يوجد غيرها)، لم تتحدث قط بقدر ما أذكر عن الرغبة أو العزاء، ومن المؤكد، أننى تكهّنت بطريقة تقليدية جداً، أن الفوتوغرافيا تحتوى على شبكة من الماهيات، ماهيات مادية (تستلزمها الدراسة الطبيعية، والكيميائية، والبصرية للصورة)، وماهيات خاصة (مستمدة مثلاً، من علم الجمال، ومن التاريخ، ومن علم الاجتماع): ولكن فى لحظة وصولى إلى جوهر الفوتوغرافيا بشكل عام، تشعبت؛ فبدلاً من تتبع درب لأنطولوجيا صورية (لنطق ما)، توقفت، محتفظاً معى، مثل كنز، برغبتى أو بحزنى؛ لم يستطع الجوهر المتوقع للصورة، فى رأى، أن ينفصل عن "الوجدانى" الذى تألف منه، منذ النظرة الأولى. كنت شبيهاً بذلك الصديق الذى لم يلتفت إلى الفوتوغرافيا إلا لأنها سمحت له بتصوير ابنه. لأنى مشاهد، لم أعر الفوتوغرافيا اهتمامى إلا لأسباب "عاطفية"، أردت أن أعمّقها، لا بوصفها سؤالاً (مبحثاً) لكن بحسبانها جرحاً: أرى، وأشعر، ومن ثم ألاحظ، أتطلع وأتفكر.

- ٩ -

كنت أتصفح مجلة مصوّرة. استوقفتنى صورة فوتوغرافية، لا لشيء استثنائى: الفوتوغرافية المعتادة لعصيان فى نيكارا جوا: شارع مدمر، جنديان يرتديان خوذتين أثناء قيامهما بدورية، فى الخلفية، تمر راهبتان. هل أعجبتنى هذه الصورة؟ هل أثارت اهتمامى؟ هل أسرتنى؟ ولا حتى هذا، ببساطة، كانت موجودة (بالنسبة لى).

فهمت بسرعة شديدة أن وجودها (مغامرتها) متعلق بالحضور المتزامن لعنصرين منفصلين متنافرين حيث، لم ينتميا إلى نفس العالم (لا ضرورة للذهاب إلى التضاد): الجنود والراهبات. تكهّنت بقاعدة بنيوية (على مستوى نظرتى الخاصة)،



"فهمت بسرعة شديدة أن "مغامرة" هذه الصورة متعلقة بالحضور المتزامن لعنصرين..."

كوين فيسينج Koen Wessing: نيكاراجوا، دورية من الجنود تجوب الطرقات. ١٩٧٩



"... الملاءة التي تحملها الأم وهي تبكي (لماذا هذه الملاءة؟)..."

كوين فيسينج Koen Wessing: نيكارا جوا. أهل يكشفون عن جثمان صغيرهم. ١٩٧٩

حاولت على الفور أن أتأكد منها بتفحص صور أخرى لنفس المراسل الصحفي (الهولندي كوين فسينج Koen Wessing). استوقفني الكثير منها لأنها تضمنت هذا النوع من الثنائية التي لاحظتها للتو. هنا، تنتحب أم وابنتها لاعتقال الأب (بودلير Baudelaire: "الحقيقة الجلية للإيماءات في الأحداث الجسيمة للحياة")، وهذا يحدث في قلب الريف (من أين أمكنهم تلقي الخبر؟ لمن هذه الإيماءات؟). هنا، على طريق مهدم، جثمان طفل تحت ملاءة بيضاء؛ يحوطه الأهل والأصدقاء، متألين.

مشهد، للأسف، معتاد، ولكني لاحظت بعض التداخل. القدم العارية للجثمان، الملاءة التي تحملها الأم وهي تبكي (لماذا هذه الملاءة؟)، امرأة بعيدة، صديقة بلا شك، تضع منديلاً على أنفها. هنا أيضاً، بناية عليها آثار قصف، عيون كبيرة لاثنتين من الصبية، وقميص أحدهما مشلوح عن بطنة الصغير (الآلم المفرط لتلك العيون يربك المشاهد). وهناك أخيراً، أسند ثلاثة من المقاتلين الساندينست sandinistes ظهورهم إلى حائط منزل، الجزء الأسفل من وجوههم ملثم (لوجود رائحة نتنة؟ للتخفى؟ ساذج أنا، لا أعرف حقائق صراع حرب العصابات)؛ يمسك أحدهم ببندقية يريحها على فخذه (أرى أظافره)؛ ولكن يده الأخرى تنبسط وتتمدد، كما لو كان يشرح ويبرهن على شيء ما. انطبقت قاعدتي بشكل أفضل على صورة أخرى لم تستوقفني كثيراً، في نفس التحقيق الصحفي. كانت صوراً جميلة، عبّرت كثيراً عن عزة العصيان والرعب منه، ولكنها لم تتضمن في نظري أية إشارة مميزة: ظل تجانسا ثقافياً؛ كانت "مُشاهد"، إلى حد ما على نهج الرسّام الفرنسي لاجروز la Greuze، إذا استثنينا قساوة الموضوع.

- ١٠ -

قاعدتي كانت معقولة بما يكفي كي أحاول تسمية هذين العنصرين (سوف أحتاج إلى ذلك)، حيث أسس حضورهما المتزامن، كما يبدو، نوع اهتمامي الخاص بهذه الصور.

الأول، كما يتضح، هو امتداد، له انبساط الحقل، الذي أدركته بقدر كبير من الألفة قياساً بمعرفتي، وثقافتى. قد يكون هذا الحقل إلى حد ما ذا طراز متفرد وناجح، وفقاً لفنية المصور أو حظه، ولكنه دائماً ما يحال إلى معلومة كلاسيكية: العصيان، نيكارا جوا، وكل ما يشير إليهما: مقاتلون معدمون، يرتدون بزات مدنية، طرققات خربة، جثامين، آلام، الشمس والعيون الهندية ذات الجفون المثقلة. تُصنع آلاف الصور من هذا الحقل، ومن أجل هذه الصور أستطيع، بالتأكيد، اختبار نوع من الاهتمام العام، يكون فى بعض الأحيان ممتزجاً بالانفعال، لكنها العاطفة التي تمر من خلال رابط معقول لثقافة أخلاقية وسياسية. ما أشعر به تجاه هذه الصور يصدر عن انفعال متوسط، عن ترويض بشكل ما. لم أعرف فى الفرنسية، كلمة تعبر ببساطة عن هذا النوع من الاهتمام الإنسانى؛ ولكنى أعتقد أن هذه الكلمة توجد فى اللاتينية، ألا وهى الستوديوم ^(٨)studium التي لا تعنى "الدراسة"، على الأقل بشكل مباشر، ولكنها التطبيق على شيء ما، المذاق بالنسبة لشخص ما، نوع من الشروع العام، المتعجل بالتأكيد، ولكن بدون بصيرة خاصة. أثار الستوديوم اهتمامى بكثير من الصور الفوتوغرافية، سواء كنت ألتقها كشهادات سياسية، أو أذوقها كمشاهد تاريخية جيدة؛ وذلك لأننى أعيها فى الأشكال، وفى الوجوه، وفى الإيماءات، وفى الزخارف، والأفعال (هذا المعنى الضمنى حاضر فى الستوديوم).

يأتى العنصر الثانى لكى يكسر (أو يحدد إيقاع) الستوديوم. هذه المرة ليس أنا من سوف أبحث عنه (مثلاً أحيط بوعى السائد حقل الستوديوم)، بل هو الذى ينطلق من المشهد، مثل سهم، ويخترقنى. توجد الكلمة فى اللاتينية لكى تشير إلى هذا الجرح، هذه الوخزة، هذه العلامة التى أحدثتها آلة مدببة؛ تلامنى هذه الكلمة بشدة حتى إنها

(٨) التأويل والتفسير والاستقبال الثقافى واللغوى والسياسى للصورة . (الترجمة)

تعود أيضا إلى فكرة الترقيين وأن الصور التي أتحدث عنها هي في الحقيقة وكأنها مُرَقَّنة، وفي أحيان حتى مُرَقَّطة، بهذه النقاط الحساسة؛ وبالتحديد فإن تلك العلامات، وهذه الجروح، ليست سوى عدد هائل من النقاط والفواصل. هذا العنصر الثاني الذي جاء يُحدث بَلْبَلَةً لفهوم الستوديوم، سوف أُسميه إذن البونكتوم ^(٩)punctum، لأنه هو أيضاً: وَخز، ثَقْب صغير، بُقْعَة صغيرة، قُطْع صغير - وأيضاً رَمِيَة نرد. البونكتوم - هو تلك المصادفة، التي توخزني (ولكنها أيضا تؤلني، تطعنني).

وهكذا فإن التمييز بين مبحثين في الفوتوغرافيا جعلني أستطيع الانشغال بكليهما الواحد تلو الآخر (لأن الصور التي أحببتها كانت في الإجمال مؤلفة على غرار سوناتة كلاسيكية).

- ١١ -

تبدو لي كثير من الصور، للأسف، هامة، ولكن حتى من بين الصور التي أراها حية، لا يثير أغلبها سوى متعة إجمالية، وإذا جاز التعبير، ملساء؛ لا تملك أى منها بونكتوم : تسرنى أو تكدرنى دون النفاذ إلى: ترتد تلك الصور من نفس الستوديوم. والستوديوم هو ذلك الحقل الرحب للرغبة الفاترة، للاهتمام المتنوع، للمذاق المتناقض: أحب/لا أحب، أميل / لا أميل. ينتسب الستوديوم إلى صيغة الانجذاب to like، وليس الشغف to love. تستنفر نصف رغبة، ونصف إرادة؛ هو نفس اهتمامنا المُبهم، المُراوغ، غير المسئول، بأناس، وعروض، وملابس، وكتب، نجدهم "جيدين".

(٩) الاستقبال والتأويل والتأثر الشخصى بالصورة . (الترجمة)

التعرف على الستوديوم ، يجعل من المحتم التعرف على نوايا المصور، والدخول في تناغم معها، التصديق عليها، شحبها، ولكن دائماً ما أستوعبها وأدخل في نقاش ذاتي معها، لأن الثقافة (التي يُستمد منها الستوديوم) هي عَقْد يجرى بين المبدعين والمستهلكين. يعد الستوديوم نوعاً من التربية (معرفة وتهذيب) تسمح لي بالتعرف على المصور، وعلى معايضة مقاصده التي تؤسس وتحيي ممارسته، ولكن معايشتها إذا صح القول بصورة عكسية، تبعاً لإرادتي كمُشاهد، وكأنّ على أن أقرأ أساطير المصور في الصورة الفوتوغرافية، والتأخى معها، بون الإيمان بها تماماً. تسعى هذه الأساطير بوضوح (تلك هي فائدة الأسطورة) للتوفيق بين الصورة والمجتمع (هل هذا ضروري؟ نعم، بالتأكيد: الصورة خطيرة)، عن طريق تخصيص وظائف لها، تمثل أعذاراً للمصور. هذه الوظائف هي: الإبلاغ، التمثيل، المفاجأة، التدليل، إثارة الرغبة. وأنا بصفتي مشاهد، أتعرف عليها بدرجة أكبر أو أقل من المتعة، أحيطها بالستوديوم الخاص بي (الذي لم يمثل أبداً لذتي أو ألى).

- ١٢ -

بما أن الصورة هي محض صدفة خالصة ولا يمكن أن تكون غير ذلك (دائماً ما تعرض شيئاً ما) - على عكس النص الذي يستطيع، عن طريق التأثير المبالغ للكلمة الواحدة، أن يمرر جملة من الوصف إلى التأمل - تقدم الصورة على الفور "تفاصيلها" التي تؤلف المادة الخام نفسها للمعرفة الإثنولوجية. علمني وليام كلاين William Klein، في صورته "الأول من مايو ١٩٥٩" في موسكو، كيف يرتدى الروس (و هو ما لا أعرفه): انتبهن إلى قبعة الصبي الكبيرة، وربطة عنق الآخر، ومنديل رأس السيدة العجوز، وقصة شعر الفتى، إلخ.



"علمني المصور نوعية ملابس الروس: انتبهت إلى قبعة الصبي الكبيرة، ربطة عنق الآخر،

منديل رأس السيدة العجوز، قصة شعر الفتى..."

وليام كلاين William Klein، الأول من مايو، موسكو. ١٩٥٩

أستطيع أن أفحص التفاصيل أكثر، وبملاحظة أن كثيراً من الرجال الذين صورهم نادار Nadar أظافهم طويلة؛ يطرح سؤال إثنوجرافى نفسه على: كيف كان تجميل الأظافر فى العصور المختلفة؟ ذلك، ما تستطيع الفوتوغرافيا الإجابة عنه، أفضل كثيراً من البورتريهات المرسومة. تسمح لى أن أصل إلى معرفة تحتية؛ تمدنى بمجموعة من الأشياء الجزئية، كما يمكن لها أن تدغدغ بعض الميل الفيتيشية فى نفسى: لأنه توجد "أنا" تحب المعرفة، وتشعر إزاءها بمذاق محبيب. فى نفس الوقت، أحب بعض ملامح السيرة التى، فى حياة الكاتب، تسحرنى، مثل بعض الصور الفوتوغرافية؛ وقد أسميت هذه الملامح بيوجرافيم (العناصر الأولية للسيرة) "biographèmes"؛ علاقة الفوتوغرافيا بالتاريخ مثل البيوجرافيم بالنسبة للسيرة.

- ١٣ -

لابد أن الشخص الأول الذى رأى الصورة الأولى (لو استثنينا نيبس Niepce، الذى أظهرها) تصور أنها صورة زيتية: نفس الإطار، ونفس المنظور . كانت الفوتوغرافيا، وماتزال مهمومة بشبح الصورة الزيتية (يصور مابلثورب ساق سوسنة مثلما كان يمكن أن يقوم به رسام شرقى)؛ لقد جعلت الفوتوغرافيا الرسم من خلال نسخها ونزاعاتها، مرجعها المطلق، الأبوى، كما لو كانت وليدة لوحة (هذا صحيح، تقنياً، ولكن فقط فى جانب منه؛ ذلك أن الغرفة المظلمة للرسامين ليست إلا إحدى أسباب الفوتوغرافيا؛ السبب الأساسى، قد يكون الاكتشاف الكيميائى). عند هذه النقطة فى بحثى، لا شئ، جوهرى يميز صورة فوتوغرافية مهما كانت واقعيتها عن لوحة مرسومة. و"التصويرية pictorialisme" ما هى إلا مبالغة لما تتصوره الصورة عن نفسها.

غير أن الفوتوغرافيا لم تتماس مع الفن من خلال الرسم (كما يبدو لي)، بل من خلال المسرح. دائماً ما يُنصَّب نيبس، وداجير **Daguerre**، رواداً للفوتوغرافيا (حتى لو كان الأخير قد اغتصب إلى حد ما مكانة الأول)؛ إذ إن داجير، حينما استحوذ على ابتكار نيبس، انتفع من ساحة القصر (في الجمهورية) لعرض بانوراما مسرحية مفعمة بحركات وألعاب ضوئية. قدّمت الغرفة المظلمة إجمالاً، الرسم المنظوري، والفوتوغرافيا، والديوراما **Diorama**^(١٠) في الوقت نفسه، حيث مثل ثلاثتهم فنون المسرح. ولكن إذا كانت الصورة الفوتوغرافية تبدو لي أكثر قرباً من المسرح؛ هي كذلك عن طريق وسيط فريد (من الجائز أننى الوحيد الذى يراه): هو الموت. من المعروف الصلة الأصلية بين المسرح وعبادة الموتى: كان الممثلون الأوائل ينفصلون عن الجماعة بتمثيلهم دور الموتى؛ بتقليدهم الموتى، كانوا يتبدون مثل جسد حي وميت فى الوقت نفسه: تمثال نصفى أبيض للمسرح الطوطمى، رجل ذو وجه ملون من المسرح الصينى، راقصو الكاتا كالى **katha kali**^(١١) الهندى مطليون بمسحوق عجينة الأرز، قناع النو **No** اليابانى. بيد أنها نفس العلاقة التى أجدها فى الصورة؛ مهما كان سعينا لجعلها صورة حية (وهذا اللاهث على "جعلها حية" قد لا يكون إلا الإنكار الأسطوري للانزعاج من الموت)، الصورة الفوتوغرافية هي مثل مسرح بدائى، مثل لوحة حية، مثل مجازية الوجه الساكن المخضب الذى نرى الموتى تحته.

- ١٤ -

أتصور (هذا كل ما أستطيع فعله، بما أننى لست مصوراً فوتوغرافياً) أن الحركة الأساسية للمصور هي مفاجأة شيء ما أو شخص ما (بشباك الكاميرا الصغير)، وأن

(١٠) الديوراما لوحة كبرى تضاء بالأنوار المتحركة . (الترجمة)

(١١) الكاتا كالى دراما هندية راقصة . (الترجمة)

هذه الحركة تكون بالتالي متقنة عندما تحدث دون علم الموضوع المصور. نشأت من هذه الحركة الصريحة جميع الصور الفوتوغرافية، حيث المبدأ وراء إنتاجها (أو من الأفضل القول الحجة) هو "الصدمة"؛ لأن "الصدمة" الفوتوغرافية (مختلفة كثيراً عن اليونكتوم) الذي لا يقوم على فعل الصدمة بقدر قيامه بالكشف عما حُسِن إخفاؤه، والذي جهله الفاعل نفسه أو لم يعه. وعليه، كل سلسلة "المفاجآت" (هكذا هي بالنسبة لي، بصفتي مُشاهد؛ ولكن بالنسبة للمصور، هي بالأحرى "كفاءات").

المفاجأة الأولى هي "الندرة" (ندرة المصدر، بطبيعة الحال)؛ يقال لنا بإعجاب، إن أحد المصورين استغرق أربع سنوات في البحث عن تكوين مختارات فوتوغرافية للمسوخ (الرجل ذي الرأسين، المرأة ذات الثلاثة نهود، الطفل ذي الذيل، إلخ. :الجميع مبتسمون). المفاجأة الثانية، المعروفة جيداً عن الرسم، التي كثيراً ما تعيد إنتاج حركة عند نقطة في مسارها لا تستطيع العين العادية تثبيتها (أطلقت في كتاب آخر على هذه الحركة اسم **القوة السحرية numen**^(١٢) للوحة التاريخية): لمس بوناپارت Bonaparte لتوه المصابين بالطاعون في يافا Jaffa؛ انسحبت يده؛ وبنفس الطريقة، تُجمد الصورة بفعلها الخاطف مشهداً سريعاً في زمنه الفاصل: مثل ما صوره أبستيجي Apesté-guy، أثناء حريق الـ publicis^(١٣)، حين التقط صورة لامرأة وهي تقفز من نافذة. المفاجأة الثالثة هي مفاجأة الإبهار: "منذ نصف قرن، صور هارولد د. إدجرتون Harold D. Edgerton سقوط نقطة لبن، في جزء من مليون من الثانية" (لا أحتاج كثيراً

(١٢) القوة السحرية أو الإلهية الكامنة في الأشياء أو الأشخاص أو الأماكن . (الترجمة)

(١٣) الشركة الفرنسية العملاقة للدعاية والاتصالات والعلاقات العامة التي تعرضت لحريق كبير سنة ١٩٧٢ . (الترجمة)

للاعتراف بأن هذا النوع من الصور لا يمسنى ولا حتى يهمنى. أنا فينومينولوجى إلى درجة أننى لا أحب سوى الحضور الذى يتواءم مع قدراتى). مفاجأة رابعة وهى أن ما ينتظره المصور من تحريفات التقنية: طباعة مزبوجة *surimpressions*، خداع بصرى *anamorphoses*، استغلال إرادى لبعض العيوب (عيوب الكادر، الضبابية، اختلال المناظير)؛ لعب مصورون كبار (كأمثال جيرمان كرول *Germain krull* وكيرتيز *kertész* وويليام كلاين) على هذه المفاجآت، دون أن يقنعونى، حتى لو كنت أتعلم دلالتها الانقلابية. خامس نوع من المفاجآت: التلاقى. صور كيرتيز نافذة حجرة علوية، وراء الزجاج اثنان من التماثيل النصفية القديمة تنظر إلى الشارع (أحب كيرتيز، ولكنى لا أحب الهزل لا فى الموسيقى ولا فى الفوتوغرافيا). يمكن للمصور أن ينسق المشهد الذى يرغب فى التقاطه؛ إنما فى عالم الإعلام المرئى، يعد المشهد "طبيعياً" حيث الصحفى الجيد هو من امتك العبقرية، أعنى فرصة المباغثة، مثل مفاجأة أمير فى برزته وهو يتزلج على الجليد.

تدعن كل هذه المفاجآت لمبدأ التحدى (ولذلك هى غريبة بالنسبة لى). المصور، مثل البهلوان، لابد أن يتحدى القوانين المحتملة أو حتى الممكنة، وإلى أقصى حد. يجب أن يتحدى تلك المثيرة للاهتمام؛ تصبح الصورة "مذهلة" نظراً لأننا لا نعرف لماذا التقطت؟ ما الداعى وما الفائدة من تصوير شخص عار يقف أمام كوة باب بعكس الضوء؟ مقدمة عربية قديمة فى العشب، سفينة شحن على الرصيف، أريكتان فى مرج، أرداف امرأة أمام نافذة ريفية، بيضة على بطن عارٍ (صور حصلت على جوائز فى مسابقة للهواة)؟ فى مرحلة سابقة، كانت الفوتوغرافيا، لكى تدهش، تصور الوجهاء، لكن فيما بعد، ومن خلال انقلاب معروف، ما تصوّره كانت تقرُّ له بالاستحقاق. أصبح إذن "أى شىء كان" الغاية المصطنعة للقيمة.

بما أن كل صورة هي عَرَضِيَّة (وبذلك تكون خارجة عن المعنى)، لا تستطيع الفوتوغرافيا الإفصاح (نزوعاً إلى التعميم) إلا من وراء قناع. هذه هي الكلمة بعينها التي استخدمها كالفينو *Calvino* ليشير إلى ما يجعل من الوجه نتاجاً لمجتمع ولتاريخه^(١٤). مثل بورترية ويليام كاسبى *William casby*، الذي صورّه أفيدون *Ave-don*: كشف هنا عن جوهر العبودية: القناع هو المغزى، من حيث كونه مجرداً بصورة مطلقة (مثلما كان في المسرح القديم). ولهذا السبب فإن رسامي البورترية العظام هم ميثولوجيون عظام: نادار (البورجوازية الفرنسية)، ساندر *Sander* (الألمان في عصر ما قبل النازية)، أفيدون *Avedon* (الطبقة العليا النيويوركية).

قد يكون القناع هو المنطقة الصعبة للفوتوغرافيا. يبدو أن المجتمع، يرتاب من المعنى الخالص. يريد معنى، ولكنه يريد أن يحاط هذا المعنى في نفس الوقت بالضجيج الذي يجعله أقل حدة (مثلما يقال في السيبرنطيقا *cybernetique*). أيضاً الصورة التي يكون معناها (لا أقول وقعها) مؤثراً بشدة، تتحول سريعاً؛ فنحن نستهلكها جمالياً وليس سياسياً.

صورة القناع هي في الحقيقة حُرْجَة بما يكفى لكى تقلق (في عام ١٩٣٤، راقب النازيون ساندر لأن "وجوه العصر" لم تتوافق مع النمط الأصلي النازي للعرق)، ولكنها من ناحية أخرى شديدة الرصانة (أو شديدة "التميز") لكى تؤسس حقاً نقداً اجتماعياً فعلاً، على الأقل وفقاً لمتطلبات النزعة النضالية: أى علم ملتزم يعترف بفائدة علم الفراسة؟ القدرة على إدراك المعنى، السياسى أو المعنوى لوجه، أليست فى ذاتها انحراهاً طبقياً؟ ومن المبالغة القول إن: موثق عقود ساندر متسم بالأهمية والتكلف، الحاجب الحازم والفظ؛ ولكن لا يوجد موثق عقود أو حاجب يمكن له أن يقرأ هذه

(١٤) كالفينو *Calvino*



"القناع، هو المغزى، من حيث كونه مجرد بصورة مطلقة..."

ر. أفيدون R.Avedon: وليام كاسبى William Casby، مولود عبداً. ١٩٦٣



"راقب النازيون ساندر Sander لأن وجوه العصر لم تتوافق مع النمط الأصلي للعرق النازي."

ساندر Sander ، موثق عقود

العلامات. النظرة الاجتماعية بوصفها مسافة تمر هنا بالضرورة بوسيط جمالي راقٍ، سرعان ما يردّها عديمة الجدوى. لا تكون النظرة نقدية سوى لدى الذين هم بالفعل قادرين على النقد. هذا المأزق يشبه قليلاً مأزق بريخت Brecht؛ كان عدائياً تجاه الفوتوغرافيا كما صرّح، نظراً إلى ضعف قدرتها النقدية، ولكن مسرحه لم يستطع أبداً أن يكون فعالاً من الناحية السياسية، بسبب رهافته وخاصيته الجمالية.

لو استثنينا مجال الدعاية، حيث لا يجب أن يكون المعنى واضحاً ومتميزاً إلا مراعاة لطبيعتها التجارية، تكون سيميولوجيا الفوتوغرافيا بالتالي محدودة بالتجليات الرائعة لبعض رسامي البورتريه. بالنسبة للباقي، لكل ما صدر من الصور "الجيدة"، أقصى ما يمكننا قوله إيجابياً حيالها، إن الموضوع ينطق، يحملنا، بشكل مبهم، على التفكير. بل: حتى هذا يمكن أن ينظر إليه كمصدر للخطر. على أقل تقدير، لا يوجد معنى البتة، هذا أكثر يقيناً: فقد رفض محررو مجلة Life صور كيرتيز، عند قدومه إلى الولايات المتحدة، عام ١٩٣٧، لأن صورته، قالوا عنها، "تنطق أكثر من اللازم"؛ جعلنا نتبصر، نفترض معنى - معنى آخر غير حرفي. الفوتوغرافيا في الحقيقة انقلابية، ليس عندما تُفزع، وتُكدر أو حتى توصم بالعار، ولكن حين تُفكر.

- ١٦ -

منزل عتيق، رواق للتظليل، قرميد، زخرفة عربية قديمة، رجل متكئ على الحائط، شارع مقفر، شجرة بحر متوسطية (الحمرا Alhambra، لشارل كليفورّد Charles Clif-ford): هذه الصورة القديمة (١٨٥٤) تمسني، أرغب ببساطة في العيش هناك. هذه الرغبة تغوص إلى عمق في نفسي وتتبع جنوراً لا أعرفها: حرارة الطقس؟ أساطير بحر متوسطية؟ نزعة أبولونية apollinisme؟ ضياع؟ خلوة؟ مجهولية؟ نبل؟ كيفما كان الحال (من نفسي، من دوافعي، من توهماتي)، أود أن أحيا هناك، بدقة، وهذه الدقة لا تحققها الصورة السياحية أبداً. بالنسبة لي، صور المناظر الطبيعية (حضرية أو ريفية) لابد أن تكون صالحة للسكنى، وليست مزاراً.



"أود أن أحيا هناك..."

شارلز كليفورد Charles Clifford، الحمراء (غرناطة)، ١٨٥٤-١٨٥٦

هذه الرغبة للسكنى، لوراقبتها جيداً فى نفسى، لا أجدها حالة (لا أحلم بموقع مُغالى فيه) ولا عينية (لا أسعى لشراء بيت وفقاً لعروض نشرة دعائية لوكالة عقارية). هى توهمية، تتعلق بنوع من التبصر يبدو أنه يحملنى إلى الأمام، نحو زمن طوباوى، أو يحملنى إلى الوراء، إلى مكان لا أعرفه من نفسى. حركة مزبوجة أنشدتها بودلير فى الدعوة للسفر Invitation au voyage والحياة السالفة Vie Anterieure. أمام هذه المناظر الطبيعية المفضلة، كل شىء يجرى كما لو كنت على يقين من أنه سبق لى الوجود هناك، أو أنه يجب على الذهاب إلى هناك. وإذ بفرويد Freud يقول عن الجسد الأمومى: "ليس هناك البتة مكان آخر نستطيع القول بقدر من اليقين إننا كنا فيه بالفعل"^(١٥). هكذا سيصبح إذن جوهر المنظر الطبيعى (الذى أثرته الرغبة) حميماً، يستنهض الأم بداخلى (وليس مقلقاً على الإطلاق).

- ١٧ -

وهكذا باستعراض المتعة المتعلقة التى أيقظتها فى بعض الصور، بدا لى أننى لاحظت أن الستوديوم، بسبب أنه لم يغير، ويحفر، ويخطط، من خلال بونكتوم يجذبنى أو يجرحنى، يحدث طرازاً من الصور منتشراً بشدة (الأكثر انتشاراً فى العالم)، والذى يمكننا تسميته الصورة الفوتوغرافية المتوحدة unaire. فى النحو التوليدى، يكون التحويل متوحداً unaire، إذا تم من خلاله، توليد سلسلة مفردة من الجملة النواة. وهذه التحويلات المفردة هى: البناء للمجهول والنفى والاستفهام والتوكيد. تكون الصورة متوحدة عندما تحول توكيداً "الواقع" دون انشطاره، ودون زعزعته (التوكيد هو قوة تماسك)، لا ازدواجية ولا التفاف ولا تشويش. الصورة المتوحدة لديها كل ما يجعلها عادية، "وحدة" التكوين هى القاعدة الأولى للبلاغة العامية (وعلى الأخص المدرسية): "الموضوع - كما جاء على لسان اسبثارى لمصورين هواة - لابد أن يكون بسيطاً، متخلصاً من الكماليات عديمة الجدوى؛ ذلك يحمل اسم: البحث عن الوحدة".

(١٥) شيفرييه - تيبودو Chevrier-Thibaudeau

صور التحقيقات الصحفية كثيراً ما تكون صوراً متوحدة (الصورة المتوحدة ليست بالضرورة ساكنة). لا يوجد في هذه الصور بونكتوم؛ إنما صدمة ما - يمكن للحرف أن يصد - لكن دون ارتباك؛ تستطيع الصورة أن "تصرخ"، من دون أن تجرح. يتم تلقى الصور الصحفية تلك (دفعة واحدة)، هذا كل ما في الأمر. أتصفحها، لا أتذكرها. لا توجد فيها تفصيلة (في أحد الأركان) تقطع قراعتي، أهتم بها (مثلما أهتم بالعالم)، لا أحبها.

صورة متوحدة أخرى، هي الصورة الإباحية (لا أقول إبيروتية: الإبيروتية هي إباحية مشوشة، متصدعة). لا يوجد أكثر من تجانس الصورة الإباحية، هي دائماً صورة ساذجة، لا مقصد لها ولا حسابات، مثل واجهة زجاجية لا تعرض ولا تكشف سوى عن جوهرية وحيدة، واجهة مخصصة بالكامل لعرض شيء وحيد، الجنس. ولا يوجد موضوع آخر، غير متوقع، يأتي ليستر بعض الشيء، يرجى أو يشتت. برهان عكسي *contrario*: نقل مابلثورب صوره المقربة الجنسية الفاحشة، من الإباحية إلى الإبيروتية، بتصويره من قرب شديد غرز السروال الداخلي؛ لم تعد الصورة متوحدة، بما أن ما يستهويني فيها هو حُبِّيَّات النسيج.

- ١٨ -

في هذه المساحة شديدة التوحد عادة، تجذبني أحياناً (ولكن، للأسف، نادراً) "تفصيلة"، أشعر أن وجودها وحده يغير قراعتي، وكأنها صورة جديدة تلك التي أنظر إليها، تتسم في ناظري بقيم عليا، هذا "البونكتوم" (هو ما يعلم في نفسي). ليس ممكناً أن نضع قاعدة للربط بين الستوديوم والبونكتوم (عندما يوجد هناك). الأمر يتعلق بحضور متزامن، هذا كل ما يمكننا قوله: الراهبات "كن موجودات هنالك"،

سائرات فى الخلفية، عندما صور فيسينج جنود نيكارا جوا. من وجهة نظر الواقع (التي قد تكون وجهة نظر المصور)، هناك السببية تفسر وجود "تفصيلة": الكنيسة الموجودة فى هذه البلاد اللاتينية، والراهبات العاملات فى التمريض، والمسموح لهن بالتجوال، إلخ... ولكن من وجهة نظرى مُشاهدًا، أعطيت التفصيلة بالصدفة وبلا داع. لا يتكون المشهد وفقًا لمنطق إبداعى، الصورة مزدوجة بلا شك، ولكن هذه الازدواجية ليست المُحرك لأى "إطباب"، كما يحدث فى الخطاب التقليدى. لا يوجد أى تحليل يمكن أن يفيدنى لإدراك البونكتوم (ولكن من الجائز أنها الذاكرة، كما سوف نرى أحيانًا). يكفى أن تكون الصورة كبيرة بما يفى بالحاجة، حتى لا أضطر إلى إمعان النظر فيها (لا لزوم له)، فهى حين تشغل الصفحة بالكامل، يمكننى أن ألتقاها بملء عيني.

- ١٩ -

فى أغلب الأحيان، يكون البونكتوم مجرد "تفصيلة"، بما يعنى شيئًا جزئيًا، وبالإضافة فإن إعطاء أمثلة لبونكتوم يجعلنى أسلم نفسى بشكل ما.

هاهى أسرة أمريكية سوداء، صورها جيمس فان دير زى **James Van der Zee** عام ١٩٢٦. الستوديووم واضح: أهتم بتعاطف، كموضوع ثقافى جيد، حسب ما تقوله الصورة، لأنها تتكلم (هى صورة "جيدة")، تتحدث عن الجديرين بالاحترام، عن الحياة العائلية، عن التقاليد، عن ثياب الأحد، عن مجهود الترقى الاجتماعى من أجل حياة سمات البيض (جهد مؤثر، بقدر ما هو ساذج)، يثير المشهد اهتمامى، ولكنه لا "يُعلم" فى نفسى. ما أثار به، وقد تستغربون القول، هو الحزام العريض للأخت (أو الابنة) - يا لها من زنجية فتية - الذراعان مكتوفتان وراء الظهر، بطريقة مدرسية، ولا سيما حذاؤها ذو الإبريم (لماذا طراز من الزى العتيق انقضى عهده يمسنى؟ أريد القول: إلى أى زمن يرجعنى؟).



"حذاؤها ذو الإبريم"

جيمس فان دير زى James Van der Zee، بورتريه عائلى، ١٩٢٦



"ما أراه بعناد هي أسنان الصبي الخربة..."

وليام كلاين William Klein، الحى الإيطالى، نيويورك، ١٩٥٤

هذه البونكتوم حرك فى نفسى حفاوة كبيرة، تُشبه الحنين، إلا أن البونكتوم لا يراعى الأخلاق والنوق؛ يمكنه أن يكون سيئ التهذيب. صورّ ويليام كلاين صبيّة فى الحى الإيطالى فى نيويورك عام (١٩٥٤)؛ الصورة مؤثرة ومسلية، ولكن ما أراه بعناد، هى الأسنان الخربة للصبي الصغير.

صور كيرتيز ، فى عام ١٩٢٦، بورترية لتزارا Tzara الصغيرة بمنظارها أحادى العدسة^(١٦)؛ ولكن ما ألاحظه، بتلك النظرة الإضافية التى تبدو وكأنها هدية، جمال البونكتوم، المتمثل فى يد تزارا المُسنودة على إطار الباب: يد كبيرة بأظافر متّسخة قليلاً.

لدى البونكتوم مهما كان بريقه قوة انتشار افتراضية، تكون هذه القوة فى الأغلب مجازية. هناك صورة لكيرتيز (١٩٢١) تُمثّل عازف كمان غجرى ضرير، يسوقه صبي. بيد أننى أرى، بهذه "العين المفكرة" التى تجعلنى أزيد شيئاً ما على الصورة، ذلك الطريق الترابى المطروق. تؤكد لى بنية هذا الطريق الترابى أننى فى أوروبا الوسطى؛ أدرك المرجع (هنا، تتجاوز الصورة بالفعل نفسها، أليس ذلك هو البرهان الوحيد على فنيتها؟ تُلفى بوصفها وسيطاً، لا تُصبح علامة، بل الشئ ذاته؟)، تعرفت بكل كيانى، على القرى التى مررت بها أثناء ترحالاتى القديمة فى المجر ورومانيا.

هناك امتداد آخر للبونكتوم (أقل بروسيتينية proustienne)^(١٧)، حينما لا تتبقى، للمفارقة، غير "تفصيلة" تملأ الصورة بكاملها. صورت دوان ميشال Duane Michals بورترية مستفز لأندى وور هول Andy Warhol وهو يخبئ وجهه بكتا يديه. ليس لدى أدنى رغبة فى التعليق المعقلن على لعبة الاختباء هذه (ذلك، هو الستوديوم)، لأنه

(١٦) المونوكل monocle عدسة لتصحيح الرؤية والنظر تُعلّق بسلسلة لعين واحدة . (المترجمة)

(١٧) نسبة إلى مارسيل بروسست الذى وصف ظاهرة الذاكرة اللاإرادية، أو استثارة الذاكرة بواسطة أشياء تحدث فى الواقع ليس للإرادة دخل فيها . (المترجمة)



"تعرفت بكل كياني، على القرى التي مررت بها أثناء ترحالاتي القديمة"

أ. كيرتيز A. Kertesz: لحن عازف الكمان، أبوني، المجر، ١٩٢١ .

بالنسبة إلى، أندى وور هول لا يخبى شيئاً؛ هو يقدم لى يديه لقراءة صريحة، والبونكتوم ليس هو الحركة، إنما هو الأمر المنفر قليلاً لأظافره المنفرجة، الرخوة والمحوطة بالزُرقة فى الوقت نفسه.

- ٢٠ -

قد "توخرنى" بعض التفاصيل. وإن لم تفعل، فإن ذلك بلا شك يكون بسبب تعمد وضعها على هذ النحو من جانب المصور. فى شينوهريرا Shinohiera، الرسام المحارب fighter painter، لويليام كلاين (١٩٦١)، لا تقول لى الرأس المسخ للشخصية شيئاً، لأننى أرى بوضوح أنها خدعة فى التقاط الصورة. خدمنى مثال الجنود والراهبات فى خلفية الصورة لشرح ما كان يعنيه لى البونكتوم (هنا، بالفعل أولى)؛ ولكن عندما صور بروس جيلدن Bruce Gilden راهبة ومتنكرين فى زى نساء جنباً إلى جنب (نيو أورليانز New orleans، ١٩٧٢)، لم يوقع التناقض المراد (حتى لا نقول البارز)، أى تأثير فى نفسى (إن لم يكن ربما بعض السخط). ومن ثم التفصيلى التى تهمنى لا تكون مقصودة، أو على الأقل ليس على نحو صارم، وعلى الأرجح لا يجب أن تكون كذلك؛ توجد فى حقل الأشياء المصورة مثل مكمل ما، لا يمكن تحاشيه، وممنوح فى الوقت نفسه؛ لا تشهد بالضرورة على فنية المصور؛ هى فقط تشير إلى أن المصور كان هنا، أو أنه بشكل أكثر بساطة أيضاً، لم يكن فى مقدوره عدم تصوير الموضوع الجزئى فى وقت تصويره للموضوع الكلى (كيف كان يمكن لكيرتيز "فصل" الطريق الذى كان يتنزه فيه لاعب الكمان؟). لا يتمثل تبصُر المصور بأن "يرى" ولكن بأن يوجد هناك، وبخاصة، محاكاة لأورفيوس Orphée^(١٨)، ألا يعود إلى ماكان يسلكه، إلى ما كان يعطيه لى!

(١٨) بطلة الأسطورة اليونانية أورفيوس (المترجمة).

استولت تفصيلاً على مُجمل قراعتي؛ مثلت تحولاً حيويّاً لاهتمامي، تحول يُشبه السطوع، لا تعود الصورة عادية حين تشير إلى شيء ما. استفزني هذا الشيء، زعزعتني قليلاً، كَشَفَ satori^(١٩)، عبور للفراغ (لايهم في شيء أن المرجع غير ذي شأن). شيء غريب: الإيماءة الفاضلة التي تسيطر على الصور "المحتشمة" (التي يسبر غورها ستوديوم بسيط) هي إيماءة كسولة (تتصفح، تنظر بسرعة ويفتور، تتمهل وتتعجل) وبالعكس، قراءة بونكتوم (الصورة المشار إليها، لو جاز القول) هي في أن قصيرة ونَشِطة، التقطها مثل حيوان مفترس. خدعة لغوية، يقال "إظهار صورة"، ولكن ما تظهره العملية الكيميائية هو ما لا يمكن إظهاره، هو جوهر (الجُرح)، هو ما لا يمكن أن يتحول، ولكن فقط يتكرر بضروب من الإلحاح (بنظرة ملحة). ذلك يقرب الصورة (بعض الصور) من الهايكو Haiku^(٢٠). حيث إن تدوين الهايكو أيضاً لا يمكن تصويره. كل شيء مُعطى، بدون استثارة الرغبة أو حتى إمكانية امتداد بلاغي. في الحالتين، يمكن، بل يجب أن نتحدث عن سكون نشِط، موصول بتفصيلاً (بصاعق)، بانفجار يرسمُ نجمة صغيرة على نافذة النص أو الصورة. لا الهايكو، ولا الصورة تجعلنا "نحلم".

في تجربة أومبريدان Ombredane^(٢١)، لا يرى الزوج على الشاشة سوى الدجاجة الصغيرة التي تُعبر أحد أركان الميدان الكبير للقرية. أنا أيضاً، في صورة

(١٨) بظلة الأسطورة اليونانية أورفيوس . (المترجمة)

(١٩) ومضة أو كشف أو خبرة مفاجئة مليئة بالحدس والرؤية والتوحي والمعرفة دون سبب جليّ أو إعداد مسبق. (المترجمة)

(٢٠) نوع من الشعر الياباني يعتمد على توليفة مميزة، يتحد فيها الشكل والمضمون واللغة . (المترجمة)

(٢١) أندريه أومبريدان عالم نفس فرنسي شهير . (المترجمة)



"أصرف النظر عن أية معرفة، عن أية ثقافة..."

لا أرى سوى الياقة العريضة للقميص الذي يرتديه الصبي،

والضمادة التي تُلَفّ إصبع الفتاة..."

لويس هـ. هاين Lewis H. Hine، أطفال معوقون عقلياً في مؤسسة في نيوجرسي، ١٩٢٤.

اثنين من الأطفال المعوقين عقلياً في مؤسسة في نيوجرسي (صورها لويس هـ. هاين Lewis H. Hine سنة ١٩٢٤)، لا ألفت كثيراً إلى الرعوس الضخمة ولا إلى البروفيل الذي يدعو إلى الرثاء (هذا يمثل جزءاً من الستوديوم). ما أراه، مثل زنوج أومبريدان، هي البونكتوم البعيدة عن مركز الصورة، الباقة العريضة^(٢٢) للقميص الذي يرتديه الصبي، والضمادة التي تلف إصبع الفتاة. هل أنا همجي، طفل؟ أو مهووس؛ أصرف النظر عن أية معرفة، عن أية ثقافة، أرفض أن أرث أى شيء من عين أخرى سوى عيني.

- ٢٢ -

الستوديوم هو في النهاية مشبّر دائماً. البونكتوم ليس كذلك (أرجو ألا أكون مغالياً في استخدامي لهذه الكلمات). صور نادار، في زمنه (١٨٨٢)، سافورنان دي برازا Savorgnan de Brazza^(٢٣) محوطاً بعلامين زنجيين يرتديان زيّاً بحريّاً؛ وُضِعَ أحد البحارين يده بغرابة على فخذ برازا. هذا التصرف غير الملائم كان كافياً لكي يُلْقَت نظري، ويشكل بونكتوم. إلا أنه ليس كذلك؛ لأنني أشفّر الوضع على الفور، سواء أردت أم لم أرد، كوضع "غريب" (البونكتوم، بالنسبة لي، هو الأذرع المعقودة للبحار الثاني). ما أستطيع تسميته لا يمكنه في الحقيقة أن يخزيني. عدم القدرة على تسمية

(٢٢) يطلق عليها باقة دانتون Danton وهي طراز من ياقات القمصان ترجع في أصولها إلى صورة مرسومة لجورج دانتون الزعيم الفرنسي بياقة معطفه الأسود الشهير، (المترجمة)

(٢٣) إيطالي تنس بالجنسية الفرنسية، (١٨٥٢ - ١٩٠٥)، أرسلته الجمعية الجغرافية الفرنسية لاستكشاف إفريقيا ونشر الثقافة الفرنسية. يعود اسم عاصمة الكونغو برازافيل إليه، وتعني "مكان الأخ برازا المحبوب". (المترجمة)

الأشياء بأسمائها هو عرض جيد للارتباك. صور مابلثورب بوب ويلسون Bob Wil-son^(٢٤) وفيل جلاس Phill Glass^(٢٥).

يستوقفني بوب ويلسون، لا يمكنني تعليل ذلك، أي أين استوقفني، هل هي النظرة؟ البشرة؟ وضع الأيدي؟ حذاء كرة السلة؟ التأثير أكيد، ولكنه لا يُعوّض، لا يجد التأثير علامته، اسمه، وعلاوة على ذلك هو تأثير قاطع، ويستقر مع ذلك في منطقة غامضة من نفسى، حاد ومخنوق، يصرخ في صمت. تناقض غريب، هو وميض يتماوج.

لا غرابة في أنه أحياناً لا يتكشف البونكتوم على الرغم من وضوحه، إلا بعد برهة، حين تكون الصورة بعيدة عن نظري، أفكر فيها من جديد. يحدث أنني أستطيع معرفة صورة أتذكرها بشكل أفضل من صورة أنظر إليها، كما لو أن الرؤية المباشرة توجه اللغة توجيهاً مزيفاً، وتجعلها تنخرط في مجهود للوصف تضيق معه دائماً نقطة التأثير وهي البونكتوم. عند قراءة صورة فان دير زوى، اعتقدت أنني اكتشفت ما كان يثيرني: الأحذية ذات الإبريم للزنجية المرتدية أجمل ثيابها. ولكن هذه الصورة ظلت تعمل بداخلي، وفهمت بعد ذلك أن البونكتوم الحقيقي كان العقد الذي كانت ترتديه على رقبتها، لأنه (بدون شك) كان هو نفس العقد (السلك الرقيق من الذهب المجدول) الذي كنت أرى إحدى أفراد أسرتي ترتديه دائماً، التي عندما ماتت، ظل محفوظاً في علبة عائلية للمجوهرات القديمة (كانت أخت أبي التي لم تتزوج قط، لقد عاشت عانساً بالقرب من أمها، وكنت أشعر دائماً بالآلم حيالها، مفكراً في حياتها الريفية البائسة). فهمت للتو أنه مهما كان البونكتوم مباشراً وقاطعاً، يستطيع أن يرتضى ببعض الكمون (ولكن لا يرضى أبداً نون أى اختبار).

(٢٤) ممثل ومخرج مسرحى أمريكى . (المترجمة)

(٢٥) موسيقار أمريكى مشهور . (المترجمة)



"يستوقفني بوب ويلسون، لا يمكنني تعليل ذلك..."

ر. مابلثورب R. Mapplethorpe: فيل جلاس Phill Glass وبوب ويلسون Bob Wilson

فى حقيقة الأمر - أو فى النهاية - لكى ترى صورة بشكل جيد، من الأفضل أن ترفع رأسك أو تغمض عينك. "الشرط المبدئى للصورة، هو الرؤية"، قال يانوش Ja-nouch لكافكا kafka، وضحك كافكا وأجاب: "نحن نصور الأشياء لكى نطردها من أذهانتنا. حكاياتى هى طريقة لإغلاق عيونى". يلزم على الفوتوغرافيا أن تكون صامتة (توجد صور صاخبة، لا أحبها). هى ليست مسألة "رصانة"، ولكن مسألة موسيقى. لا يمكن الوصول إلى الذاتية المطلقة إلا فى حالة محاولة جاهدة للصمت (إغماض عينك هو جعل الصورة تنطق فى الصمت). تمسنى الصورة لو انتزعتها من الثثرة التقليدية: "التقنية"، "الواقع"، "التحقيق الصحفى"، "الفن"، إلخ : لا أنطق بشئ، أغمض عيني، أدع البونكتوم ترتقى وحدها إلى الوعى النشط.

- ٢٣ -

آخر شئ عن البونكتوم: سواء أكان مُطَوَّقاً أم لا، هو أنه مكمل . هو ما أضيفه إلى الصورة ومع ذلك هو موجود فيها من قبل. بالنسبة للصبيّين المعاقّين فى صورة لويس هـ. هاين Lewis H. Hine: لا أضيف إليهما البتة تشوه البروفيل، الشفرة تقولها قبلى، إنها تأخذ مكانى، لا تتركنى أتكلم؛ ما أضيفه - والذى يوجد بالتأكيد فى الصورة - هو الياقة والضمادة. هل أضيف للصورة فى السينما؟ لا أعتقد؛ ليس لدى الوقت أمام الشاشة، لا تكون عندى الحرية لكى أغلق عيني؛ وإلا فعند فتحهما ثانية، لن أجد نفس الصورة، فأكون مجبراً على نهم مستمر؛ كمية هائلة من الخصائص الأخرى، ولكن نون تمنع فى الفكر؛ من هنا جاء اهتمامى بالفوتوجرام Photo-gramme^(٢٦).

(٢٦) عملية تصوير ثلاثية الأبعاد للأماكن والأشياء تستخدم لتكوين المجسمات وعمل الخرائط الدقيقة والتنقيب عن الآثار . (المترجمة)

على أن السينما لها مقدرة يبدو أنها للوهلة الأولى لا تتوفر للفوتوغرافيا، فالشاشة (كما لاحظ بزان Bazin) ليست إطاراً، ولكنها مخبأ. الشخص الذي يخرج منها يستمر في الحياة، "حقل معتم" يضاعف بلا توقف الرؤية الجزئية. بيد أنني أمام آلاف الصور، بما فيها تلك التي تمتلك ستوديووم جيداً، لا أشعر بأى حقل معتم. كل ما يحدث داخل الإطار يموت حتماً، ويتم تجاوز هذا الإطار. حينما نعرف الصورة بأنها صورة ساكنة، لا يعنى هذا فقط أن الشخصوس التي تمثلها لا تتحرك؛ بل يعنى أنهم لا يغادرون؛ يكونون مخدّرين وثابتين، مثل الفراشات. غير أنها بمجرد وجود بونكتوم، يتخلق حقل معتم (يتم التكهن به). بسبب العقد المفتول، امتلكت الزنجية ذات الملابس المتأنقة، بالنسبة لى، حياة كاملة خارج صورتها؛ لدى رغبة فى لقاء بوب ويلسون الذى زودنى ببونكتوم لا يعوض. هاهى الملكة فيكتوريا، صورها جورج و. ويلسون George W. Wilson (عام ١٨٦٣) تمتطى فرساً، حيث تغطى التنورة ردفها بوقار (تلك، هى الأهمية التاريخية، الستوديووم).

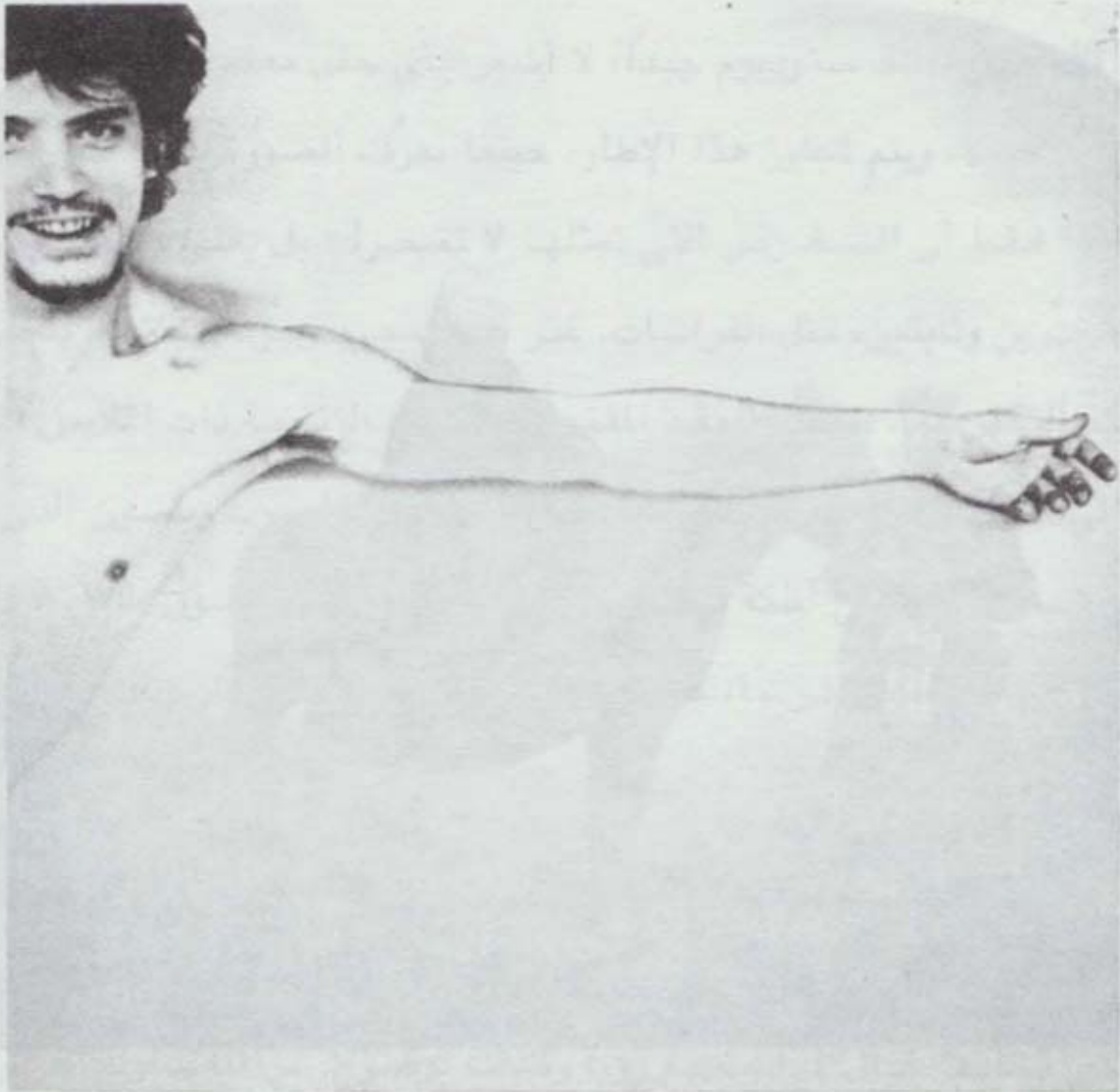
ولكن إلى جانبها، يجذب نظرى سائس مرتدياً التنورة الإسكتلندية ممسكاً بلجام الفرس. هذا هو البونكتوم؛ لأنه حتى لو لم أكن أعرف جيداً الوضع الاجتماعى لهذا الإسكتلندى (خادم؟ خيال؟)، أستطيع رؤية وظيفته بوضوح: مراقبة سلوك الفرس. ماذا لو شرع الفرس فجأة فى الوثب؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لتنورة الملكة، أعنى لجلالتها؟ يُخرج البونكتوم على مستوى التوهم الشخصية الفيكتورية من الصورة (ويصلح القول هنا تماماً)، ويمنحها حقلاً معتماً.

الحضور (الحيوى) لهذا الحقل المعتم هو، على ما أعتقد، ما يميز الصورة الإيروتيكية عن الصورة الإباحية، تمثل الصورة الإباحية الأعضاء الجنسية بطريقة عادية، صانعة منها موضوعاً ساكناً (تميمة) Fetish مبعجلاً، مثل إله لا يخرج من



" الملكة فيكتوريا، لا تتسم مطلقاً بالجمال..." (فيرجينيا وولف)

ج. و. ويلسون G.W.Wilson، الملكة فيكتوريا، ١٨٦٣ .



"... اليد عند درجتها المناسبة للانفراج، ولدرجة استسلامها ..."

ر. مابلثورب R. Mapplethorpe، شاب ذو ذراع منبسط.

محاربه، بالنسبة لى لا أرى بونكتوم فى الصورة الإباحية؛ غايتها تسليتى (بل ويدركنى الضجر منها سريعاً). الصورة الإيروتيكية، على العكس (وهذا شرطها عينه)، لا تجعل من الجنس موضوعاً مركزياً؛ حيث يمكنها تماماً عدم إظهاره، فهى تجذب المشاهد خارج إطارها، وهكذا أحيى تلك الصورة وتحيينى. البونكتوم هو أمر خارج المجال بالكاد يلاحظ، كما لو أن الصورة أطلقت الرغبة أبعد مما تسمع لنا بأن نراه، ليس فقط نحو "المتبقى" من العرى، وليس فقط نحو توهم الممارسة، ولكن نحو التفوق المطلق لكائن، يمتزج روحه وجسده معاً. هذا الفتى ذو الذراع المنبسطة، ذو الابتسامة المشعة، على الرغم من أن جماله ليس أكاديمياً بالمرّة، ورغم أن نصفه خارج الصورة، مبعداً إلى أقصى اليسار من الإطار، فهو يجسّد نوعاً من إيروتيكية مرحلة. تحملنى الصورة على تمييز الرغبة الثقيلة للإباحية عن الرغبة الخفيفة الطيبة للإيروتيكية، وبعد كل شيء، ربما تكون مسألة "حظ".

ثبت المصوّر يد الفتى (مابلثورب نفسه، على ما أعتقد) عند درجتها المناسبة للانفراج، ولدرجة استسلامها، بعض مليمترات زائدة أو ناقصة، والجسد الذى نخمن وجوده، ما كان له أن يقدم بمثل هذه الروعة (الجسد الإباحى، محتشد، يعرض نفسه، ولا يمنع نفسه، ليس فيه أى سماح): لقد وجد المصوّر اللحظة الخاصة، كايروس (Kairos) ^(٢٧) الرغبة.

- ٢٤ -

متقدماً هكذا من صورة إلى صورة (للحق أقول، كلها عامة، حتى الآن)، قد أكون تعلمت كيف أثّرت رغبتي، ولكنى لم أكتشف طبيعة (جوهر) الفوتوغرافيا. لزم

(٢٧) هناك كلمتان فى اللغة اليونانية القديمة تعبّران عن الزمن: Chronos أى الزمن الكمى، و Kairos أى الزمن الكيفى أو الخاص. (الترجمة)

على أن أقر أن رغبتى كانت وسيطاً ناقصاً، وأن ذاتية مختزلة فى مشروعها الاستمتاعى لا يمكنها التعرف على الكلّ. كان يجب على أن أغوص أكثر فى نفسى حتى أكتشف بدهاءة الفوتوغرافيا، هذا الشيء الذى يراه أى شخص وهو يتطلع إلى صورة ما، والذى به يتميز فى عينيه عن أى صورة أخرى. لا بد لى أن أقدم اعتذارى وتداركى للأمر.

- ٢٥ -

فى إحدى أمسيات نوفمبر، بعد موت أمى بوقت قصير، كنت أرتب بعض الصور. لم أمل فى "العثور عليها"، كما لم أنتظر شيئاً من "صور شخص، تذكرنا به بشكل أضعف بكثير من الاكتفاء بمجرد التفكير فيه" (بروست) Proust^(٢٨). لقد كنت أعرف جيداً أنني بسبب تلك القدرية التى هى أحد الملامح الأكثر قسوة للحداد، مهما حاولت مراجعة تلك الصور، لن أتمكن إطلاقاً من استحضار ملامحها (استدعائها جميعاً أمامى). لا، ما أردته - مثلما أراد فاليرى^(٢٩)، بعد موت أمه - هو "كتابة نص صغير عنها لنفسى فقط" (ربما أكتبه يوماً ما، فإن نُشر تبقى ذكراها على الأقل طيلة ذبوع صيتى). وهكذا، لم أستطع القول بالنسبة لهذه الصور، إذا استثنينا الصورة التى نشرتها بالفعل (والتي تظهر أمى امرأة شابة على شاطئ ليلاند Les Landes، حيث "أستعيد" مشيتها، وصحتها، ووجهها، ولكن ليس وجهها القصي)، الصور التى لدى لأمى لا أستطيع حتى القول إننى أحببتها. لم أكن أجلس لتأملها، والانغماس فيها. كان القصد فرزها، ولكن لم تبد لى واحدة منها "صالحة" فعلاً، لا بصفتها عملاً فوتوغرافياً

(٢٨) بروست Proust ، III ، ٧٥١ ، ٨٨٦ .

(٢٩) فاليرى Valéry ، ٥١ .

ولا بعثاً حياً لوجه أثير، لو أننى عرضت تلك الصور يوماً ما على أصدقاء لتشككت فى أنها سوف تفصح لهم عن شىء.

- ٢٦ -

كان التاريخ هو الذى يفصلنى عن كثير من هذه الصور، أليس التاريخ ببساطة هو ذلك الزمن الذى لم نكن قد ولدنا فيه بعد؟

طالعت عدم وجودى فى تلك الصور، من ملابس أمى التى كانت ترتديها قبل أن أستطيع تذكرها. هناك دهشة ما فى رؤية شخص مألوف لديك مرتدياً ملابس **مختلفة**.
فها هى أمى، نحو عام ١٩١٢، مرتدية قبعة مزينة بالريش وقفازات وكتاناً ناعماً على المعصم والرقبة، بأناقة تكذبها بساطتها وبساطة نظرتها وعذوبتها، هذه هى المرة الوحيدة التى رأيتها فيها هكذا، مأخوذة فى تاريخ (الأنواق، والموضات، والأقمشة)، حينئذ ينصرف انتباهى عنها بالالتفات إلى إكسسوارات فنّت. ولأن الملابس فانية فهى تشكل قبراً آخر للمحبوب. ولأجل أن "أستعيد" أمى، على نحو عابر للأسف، ويدون حتى أن أكون قادراً على الاحتفاظ بهذا البعث لمدة أطول، يجب، فى وقت لاحق، العثور فى بعض الصور على الأشياء التى كانت تحتفظ بها على طاولة زينتها، علبة بودرة عاجية (كنت أحب صوت غطائها)، قنينة من الكريستال، كرسى منخفض، هو الآن قرب سريرى، وأيضاً، لبّادة من نخيل كانت تضعها على الأريكة، والحقائب الكبيرة التى كانت تحبها (حيث تكذب أشكالها المريحة الفكرة البرجوازية عن "حقيقية اليد").

وهكذا، تنطوى خصوصية حياة شخص سبق وجوده وجودنا قليلاً، على توتر التاريخ الشديد المتمثل فى التشارك فيه. هستيرى هو التاريخ؛ لا يتشكل إلا إذا نظرنا

له، فقط بالتفاتنا إليه. ولكي نتطلع إليه ينبغي أن نستبعد منه، وبصفتي روحاً حية، أنا عكس التاريخ تماماً، أنا الذى يكذبه ويهدمه من أجل تاريخى الشخصى (من المستحيل بالنسبة لى أن أومن بـ "الشهود". من المستحيل على الأقل أن أكون واحداً منهم، لم يستطع ميشليه Michelet أن يكتب فعلياً شيئاً عن زمنه). الزمن الذى كانت أمى تحيا فيه قبلى - ذلك بالنسبة لى - هو التاريخ (علاوة على ذلك، هذه هى المرحلة التى تهمنى أكثر، تاريخياً). لا توجد معلومة سابقة قادرة على أن تجعلنى أتبين أن هذا الزمن بدأ معى (هذا هو تعريف ذاكرة الشئ Anamnèse) - فى حين أننى بتأملى صورة تعانقنى فيها أمى طفلاً، بالقرب منها، أستطيع أن أوقظ فى نفسى طراوة الحرير الصينى وعطر مسحوق زينتها.

- ٢٧ -

وهكذا يبدأ السؤال الجوهرى فى طرح نفسه: هل تعرفت عليها؟

وفقاً لهذه الصور، تعرفت أحياناً على مقاطع من وجهها، على علاقة ما بين أنفها وجبهتها، على حركة أذرعها ويديها. لم أندركها أبداً سوى أجزاء، بما يعنى أننى افتقدت وجودها، ومن ثم افتقدتها بأسرها. لم تكن هى، ولم تكن أيضاً شخصاً آخر. لقد تعرفت عليها وسط آلاف من النساء الأخريات، ومع ذلك لم "أجدها". تعرفت عليها معرفة مغايرة، وليست جوهرية. تجبرنى الفوتوغرافيا بذلك على أن أهوم بجهد مؤلم. متوجهاً إلى قصص هويتها، أخطب بين صور شبه حقيقية، وبالتالي مزيفة تماماً. القول، أمام بعض الصور "بأنها تقريباً هى" هو أكثر تمزيقاً لى من القول، أمام صور أخرى، "ليست هى على الإطلاق". "تقريباً" هذه، هى نظام للحب مروّع، ولكنها أيضاً الوضع المحبط للحلم، الذى بسببه أكره الأحلام.

ولأننى غالباً ما أحلم بها (لا أحلم إلا بها)، لكنها لا تكون أبداً بالضبط أُمى:
أحياناً، تتسم فى الحلم، بشيء ما فى غير محله، بشيء من المغالاة. على سبيل المثال،
تبدو مرحلة، أو وقعة - حيث لم يكن ذلك حالها على الإطلاق - أو حين أعرف أنها هى،
ولكن لا أرى ملامحها (ولكن هل نحن نرى فى الأحلام، أو نعرف؟) أحلم عنها،
ولا أحلم بها. هو نفس المجهود، أمام الصورة، كما فى الحلم، نفس الجهد السيزيفى
sisyphéen^(٣٠): الصعود، مشدوداً نحو الجواهر، الهبوط ثانية دون تأمله، والبدء من
جديد.

على الرغم من ذلك، كان دائماً ما يوجد فى صور أُمى تلك، مكان محفوظ
ومصون، بريق عينيها. للحظة الأولى هو لمعان فيزيائى محض، أثر فوتوغرافى على
لون بؤبؤ عينيها، ذلك الأخضر المائل للزرقة. ولكن هذا الضوء كان فى حقيقة
الأمر نوعاً من الوساطة التى قادتنى لهوية جوهريّة، لعبقرية الوجه المحبوب. ثم
إنه، مهما كان عدم الإتيقان، أظهرت كل صورة من هذه الصورة الشعور
الحقيقى الذى عايشته فى كل مرة "تركت" نفسها لعدسة الكاميرا. كانت أُمى تترك
نفسها للصورة، خوفاً من أن ينقلب رفضها إلى "موقف"؛ لقد نجحت فى هدوء
فى اختبار الوقوف أمام العدسة (تصرف لا يمكن تجنبه)، ولكن بدون المبالغة
المسرحية للتواضع أو العبوس، لأنها كانت دائماً قادرة على أن تستبدل بقيمة خلقية
قيمة أخرى أسمى، قيمة اللباقة. لم تصارع صورتها كما أفعل مع صورتى، لم
تفرض نفسها.

(٣٠) جهد دائم لا طائل من ورائه غير العناء، والمصطلح منسوب إلى أسطورة سيزيف اليونانية . (الترجمة)

جری الأمر هكذا، وحید فی المنزل وقد ماتت لِتَوَّها، أنظر إلى صورها، واحدة تلو الأخرى، تحت المصباح، بصحبتهأ أعود تدريجياً بالزمن إلى الوراء، أبحث عن حقيقة الوجه الذى أحببته، واكتشفتها.

كانت الصورة قديمة جداً، كرتونية، مهترئة الحواف، باهتة الطباعة ذات المسحة البنية، تُظهِر بالكاد طفلين واقفين معاً، وقد شكلا فريقاً، على نهاية جسر خشبي فى حديقة شتائية لنباتات ذات سقف زجاجي Jardin d'Hiver. كانت أمى فى الخامسة من عمرها فى ذلك الزمن (١٨٩٨)، وكان أخوها فى السابعة، مسنداً ظهره إلى سياج الجسر، باسطاً ذراعه عليه، هى أبعد قليلاً، أقصر منه، تواجه الكاميرا. تشعر أن المصور قال لها: "تقدمى قليلاً إلى الأمام كى نستطيع رؤيتك". كانت تقبض على إصبعها بيدها الأخرى كعادة الأطفال، فى حركة مرتبكة، الأخ والأخت متوحدان، كما عرفت، بسبب نزاعات والديهما، اللذين كانا على وشك الطلاق، وقفنا جنباً إلى جنب، وحدهما، فى الممر تحت أوراق شجر الحديقة الشتوية ونخيلها (ذلك كان البيت الذى ولدت أمى فيه، فى شونوفير - سور - مارن - Chennevières sur - Marne).

كنت أراقب الفتاة الصغيرة فوجدت أمى فى النهاية. صفاء وجهها، الوضع الساذج ليديها، المكان الذى شغلته بطواعية بدون إظهار أو إخفاء نفسها، وأخيراً سيما الفتاة المتوترة الذى كان يميزها، كما يتميز الخير عن الشر، سيما الدمية متكلّفة الابتسامة التى تحاكي الراشدين - كل هذا شكل وجه البراعة القصوى (لو أردنا فهم هذه الكلمة تبعاً لأصلها اللغوى، الذى هو: "أنا لا أؤذى")، لقد حول كل هذا الوضعية الفوتوغرافية فى تلك المفارقة التى يتعذر الدفاع عنها، والتى على الرغم من ذلك تمسكت بها طوال حياتها: توكيد العذوبة، رأيت الطيبة فى صورة الفتاة الصغيرة التى



"من تظنونه أعظم المصورين في العالم؟ - نادار."

نادر Nadar: أم الفنان (أو زوجته).

شكلت وجودها على الفور وإلى الأبد، بدون أن ترثه من أحد. كيف أمكن لهذه الطيبة أن تنشأ في ظل أبوين بعيدين عن الكمال، أحباها بشكل سيئ؟ باختصار: من أسرة كانت طبيعتها بصفة خاصة خارج اللعبة، لم تنتم إلى أي نظام، أو على الأقل وقعت على حدود الأخلاق (الإنجيلية على سبيل المثال)، لم أستطع تعريف أمي بأفضل من هذا الملمح (من بين ملامح أخرى).

فخلال كل حياتنا معاً، لم نتقدم لي قط "بملحوظة" واحدة. هذه الحالة المتطرفة والخاصة، شديدة التجريد في علاقتها بصورة، كانت حاضرة في الوجه الذي كان لها في الصورة التي عثرت عليها للتو، "ليست صورة مُنصفة، هي ليست إلا صورة"، يقول جودار Godard. ولكن حُزنى أراد صورة تجمع بين العدالة والدقة، صورة مُنصفة، ليست إلا صورة، ولكن صورة صحيحة. مثلما كانت، بالنسبة لي، صورة الحديقة الشتوية.

هذه المرة، أعطتني الفوتوغرافيا شعوراً أكيداً كالذكرى، تماماً مثل ما عاشه بروسست يوماً عندما انحنى لكي يخلع حذاءه، ففاجأته ذاكرته بوجه جدته الحقيقية، "حيث عَثَرْتُ لأول مرة في ذكرى غير إرادية ومكتملة، على الواقع الحي"^(٢١). كان المصور المجهول لصورة شنفيير - سور - مارن وسيطاً للحقيقة، كما فعل نادار بتقديمه صورة لأمه (أو لزوجته - لا أحد يعرف بالتأكيد) هي واحدة من أجمل الصور في العالم. لقد أنتج صورة رائدة احتوت على أكثر مما يمكن أن يعد به بشكل معقول الكيان التقني للفوتوغرافيا. أو مرة أخرى (لأنني أحاول التعبير عن هذه الحقيقة) كانت صورة الحديقة الشتوية بالنسبة لي مثل الموسيقى الأخيرة التي كتبها شومان Schumann قبل تدهور صحته، هذا النشيد الأول للفجر Chant de l'Aube الذي يتألف مع

(٢١) بروسست Proust ، II ، ٧٥١ ، ٧٥٦ .

كينونة أمى وحزنى لموتها فى الوقت نفسه. لا أستطع التعبير عن هذا التوافق إلا من خلال سلسلة لا نهائية من الصفات، التى اختصرتها، مقتنعاً رغم ذلك بأن هذه الصورة قد جمعت كل الخصائص الممكنة التى شكلت كينونة أمى، وعلى العكس أرجعنى الإلغاء أو التحوير الجزئى، إلى صور لها لم ترضنى تماماً. نفس هذه الصور، التى أسُمّتها الفينومينولوجيا أشياء "مألوفة"، ليست إلا قياسية، تبرز فقط هويتها، وليس حقيقتها. ولكن صورة الحديقة الشتوية كانت جوهرية، لقد حققت بالنسبة لى، بصورة طوباية، العلم غير الممكن للوجود المتفرد.

- ٢٩ -

لم أستطع إسقاط هذا من تأملاتى أيضاً: أننى قد اكتشفت هذه الصورة برجوعى بالزمن إلى الوراء. ولج اليونانيون نحو الموت بالتقهقر إلى الوراء، كان ماضيهم أمامهم. وهكذا على نفس النهج عُدت إلى الوراء لحياة ليست حياتى، بل حياة شخص أحبه. بدءاً من آخر صورة لها، التقطت فى الصيف الذى سبق موتها (مُتعبة للغاية، شديدة النبل، جالسة أمام باب بيتنا، مَحَوطة بأصدقائى)، وَصَلْتُ، عابراً ثلاثة أرباع القرن، إلى صورة طفلة. حدثت بشدة فى الخير المطلق للطفولة، للأم، للأم الطفلة. بالطبع، فَقَدْتُهَا إذن مرتين، مرة فى مرضها الأخير ومرة فى صورتها الأولى، التى هى بالنسبة لى الأخيرة، فى هذه اللحظة أيضاً انقلب كل شىء وعَثُرْتُ عليها فى النهاية كما هى ...

هذه الحركية فى الصورة (وفى ترتيب الصور) عشتها فى الواقع. فى نهاية حياتها، قليلاً قبل اللحظة التى نظرت فيها إلى صورها واكتشفت صورة حديقة الشتاء، بَدَتْ أمى ضعيفة، شديدة الوهن. عِشْتُ ضعفها (كان من المستحيل على أن أشارك فى العالم قسراً، أن أخرج فى المساء؛ كانت كل تلك الحياة الاجتماعية تسبب لى الهم). اعتنيت بها أثناء مرضها، حملت لها سلطانية صغيرة للشاى أحببتها، لأنها استطاعت

أن تشرب منها براحة أكبر من الفِنجان. لقد أصبحت طفلتى الصغيرة، متوحدة بالطفلة الأصل التى كانت فى صورتها الأولى. لدى بريخت، أُعجبت كثيراً بالأدوار الطبيعية المعكوسة، حيث الابن هو الذى يربى الأم (بكياسة)؛ ومع ذلك لم أهدب أُمى قط، ولم أَسع لإقناعها بشيء، بمعنى ما: لم أَتحدث إليها قط، و لم أَلقَ فى حضورها ب خطاب لأجلها. لقد تصورنا، بدون أن نتبادل ذلك التصوُّر فيما بيننا، أن الدلالة السطحية للغة، والتعليق على الصور يجب أن يكون الفضاء الواسع للحب، لموسيقاه، عايشتها، قوية كما اعتادت أن تكون، حيث كانت هذه القوة قانونى الداخلى، عايشتها لكى أنتهى مثلما أنتهى طفلى الأنثوى، وهكذا حَسَمَت الموت بطريقتى. لو أن الموت، مثلما قال كثير من الفلاسفة، هو النصر القاسى للنوع^(٣٢)، لو أن الفرد الخاص يموت لإرضاء ما هو عام، ولو أن الفرد بعد أن يتوالد مغايراً لنفسه، يموت، منكرًا بذلك وجوده ومتجاوزًا له، أنا الذى لم أنجب، وَلَدْتُ أُمى فى مرضها، وبموتها، لم يعد لى أى سبب كى أتناغم مع مسيرة الحى الأسمى (النوع). خصوصيتى لن تقوى أبداً على أن ترقى إلى العمومية مرة أخرى (اللهم إلا بصورة طوباوية، من خلال الكتابة، المشروع، الذى هو من الآن فصاعداً، يجب أن يصبح الهدف الوحيد لحياتى). لن أستطيع سوى انتظار موتى الكلى، اللاجدى.

ذلك هو ماقرأته فى صورة حديقة الشتاء.

- ٣٠ -

شئ ما مثل جوهر الصورة طفا على تلك الصورة المخصوصة، قررت بناء على ذلك أن "أرجع" كل التصوير الفوتوغرافى (طبيعته) من الصورة الوحيدة التى كانت موجودة بالتأكيد بالنسبة لى، وأن أتخذها بشكل ما مرشداً لى فى بحثى الأخير. كل

(٣٢) موران Moran ، ٢٨١ .

صور العالم شكلت متاهة. عرفت أنى فى قلب هذه المتاهة لن أجد شيئاً سوى تلك الصورة الوحيدة، محققة قول نيتشه: "لا يبحث الإنسان التائه مطلقاً عن الحقيقة، ولكن فقط عن لحنه". كانت صورة حديقة الشتاء لحنى، ليس لأنها ساعدتني على اكتشاف سرّ ما (وحشاً خرافياً أو كنزاً)، ولكن لأنها سوف تقول لى ما الذى شكل ذلك الخيط الذى جذبني نحو الفوتوغرافيا. لقد فهمت أنه يجب بعد الآن مساعلة بداهة الفوتوغرافيا، ليس من وجهة نظر المتعة، ولكن فى علاقتها بما أسميناه رومانسياً الحب والموت.

(لا أستطيع أن أعرض صورة حديقة الشتاء، فهى لا توجد إلا بالنسبة لى. بالنسبة لكم، لن تكون سوى صورة غير متميزة، واحدة من آلاف تجليات "المأكوف"، لا تستطيع بأى حال أن تشكل الهدف المرئى لعلم ما. لا تستطيع أن تؤسس لموضوعية، بالمعنى الإيجابى للمصطلح. على أكثر تقدير قد تهم الستوديووم الخاص بكم: مرحلة زمنية، ملابس، توليد ضوء، ولكنها لا تنطوى على جرح بالنسبة لكم).

- ٣١ -

فى البدء، حددت لنفسى مبدأ: ألا أختزل ذاتى أبداً، إزاء بعض الصور، إلى مجرد عنصر اجتماعى socius غير متجسد، يتصف بالجفاء، ينشغل العلم به. هذا المبدأ أجبرنى على "نسيان" مؤسستين: العائلة، والأم.

كتب لى مجهول: "يبدو أنك تحضّر ألبوماً لصور العائلة" (مسار غريب للإشاعة)، فلا ألبوم، ولا عائلة. منذ زمن بعيد، العائلة بالنسبة لى، كانت هى أمى، وإلى جانبي، أخى. لا شىء من قبل ولا من بعد (باستثناء ذاكرة الأجداد)، لا يوجد ابن أو ابنة عمومة أو خُثولة، تلك الوحدة الضرورية لتكوين الجماعة العائلية، إلى جانب ذلك، كم يزعجنى هذا التحيز العلمى الذى يتعامل مع العائلة وكأنها فقط نسيج من القيود

والطقوس، أو يرمز لها كمجموعة من انتماءات مباشرة، أو أن نجعلها شبكة معقدة من الصراعات والقمع. يبدو الأمر وكأن علماء لا يستطيعون تصور أن هناك عائلات يحب بعضها بعضاً".

المسألة ليست أكثر من أنني لا أريد أن أختزل عائلتي إلى العائلة، كما لا أريد أن أختزل أمي إلى الأم. حيث قرأت بعض الدراسات العامة، رأيت أنه يمكن تطبيقها إلى حد كبير على وضعي، تعليقاً على فرويد (موسى والتوحيد)، يشرح ج.ج. جو J.J.Goux أن اليهودية رفضت الصورة حتى تحمي نفسها من مخاطرة عبادة الأم، وأن المسيحية، بسماحتها تمثيل الأنثى الأم، تجاوزت صرامة القانون لصالح المتخيل. مع أنني نشأت في ظل دين بلا صور حيث لا تُعبد الأم (البروتستانتية)، تشكلت ثقافياً - بلا ريب - بواسطة الفن الكاثوليكي، أمام صورة حديقة الشتاء تركت نفسي للصورة، للمتخيل. وبناء عليه استطعت أن أفهم عموميتي، ولكن بفهمها، هربت منها بون هزيمة. في الأم، كان هناك جوهر مشع غير قابل للاختزال: أمي. يتصور دائماً أن أعاني مزيداً من الألم لأنني أمضيت كل حياتي معها، ولكن ألامى تأتي معا كانت عليه، ولأنها كانت على ما كانت عليه عشت معها، فقد أضافت أمي إلي بوصفها خيراً جمال كونها روحاً متفردة. أمكنني أن أقول مثلما قال الراوي البروستي proustien في موت أمه: "لم أصر فحسب على المعاناة، ولكن على احترام أصالة هذه المعاناة"^(٢٢)، لأن هذه الأصالة كانت انعكاساً لما تتضمنه من خصائص لا تقبل الاختزال، ولذلك ضاع مرة واحدة إلى الأبد. نقول إن الحداد، بفعله المتدرج، يمحو الألم ببطء. لم أستطع، ولا أستطيع الاعتقاد بذلك، لأنه، بالنسبة لي، يمحو الزمن مشاعر الفقد (أنا لا أبكي)، هذا كل ما في الأمر. بالنسبة للباقي، كل شيء يبقى ساكناً. لأن ما فقدته، ليس صورة (الأم)، ولكن كينونة. وليست كينونة، ولكن كيفية (روحاً): ليس ما لا يمكن الاستغناء

(٢٢) بروست Proust ، II ، ٧٥١ ، ٧٥٩ .

عنه، ولكن ما لا يمكن تعويضه. أستطيع العيش بدون الأم (نفعلها جميعاً، فى وقت ما متأخر)، ولكن الحياة التى بقيت لى سوف تكون بلا انقطاع وإلى النهاية بلا وصف (بدون كيفية).

- ٣٢ -

ما لاحظته فى البداية، بطريقة حرة، تحت غطاء المنهج، أن طبيعة كل صورة متزامنة بشكل ما مع مرجعيتها، اكتشفت ذلك التزامن مرة أخرى، من جديد، مأخوذاً فى غمار حقيقة الصورة، ولذا، وجب على قبول الجمع بين صوتين: صوت المؤلف (لأقول ما يراه ويعرفه الجميع) وصوت التفرد (لتحريك ذلك المؤلف بكل زخم الشاعر التى لم تخص أحداً سواي). يبدو الأمر كما لو أثنى كنت أبحث عن طبيعة فعل ليس له مصدر ولا نلتقى به إلا مزوداً بزمن وصيفة.

كان يجب أن أدرك جيداً فى البداية، ومن ثم، لو أمكن، أن أقول (حتى لو أن الأمر بسيط) كيف أن مرجع الفوتوغرافيا ليس هو نفسه مرجع النظم الأخرى للتمثيل. لا أسمى "مرجعاً فوتوغرافياً"، الشيء المحتمل وجوده الذى تُردُّ إليه صورة أو علامة، ولكن الشيء الموجود بالضرورة الذى وُضع أمام العدسة، والذى بدوره لما وُجدت الفوتوغرافيا. يمكن للتصوير الزيتى أن يخلق الواقع نون أن يراه. يؤلف الخطاب بالتأكيد بين علامات لديها مرجعيات، ولكن هذه المرجعيات يمكنها أن تكون، بل وغالباً ما تكون "وهماً". وبعكس هذه المحاكاة، لا أستطيع أبداً فى الفوتوغرافيا إنكار أن ذلك الشيء كان هنا. يوجد وضع مزبوج مترابط هنا للواقع وللماضى. وبما أن هذا القيد لا يوجد إلا فى الفوتوغرافيا، لابد أن نضعه فى الاعتبار، بردهً للجوهر ذاته، لجوهر noème الصورة. ما أقصده فى صورة ما (لا نتحدث عن السينما) ليس هو الفن ولا هو الإبلاغ، بل هو المرجع، الذى هو النظام المؤسس للفوتوغرافيا.

اسم جوهر الصورة سوف يكون بالتالى: "ذلك - كان - موجوداً"، أو أيضاً: ما لا يمكن التعامل معه. فى اللاتينية (حذقة ضرورية لأنها تكشف عن فروق طفيفة)، سوف يقال عن ذلك بدون شك: "التداخل" *Interfuit*: إن ما أراه يوجد هناك، فى هذا المكان الذى يعتمد فيما بين اللامتناهى والذات (سواء كان المصور أو المشاهد) كان موجوداً هناك، إلا أنه انفصل على الفور. كان بالقطع حاضراً بما لا يمكن إنكاره، ومع ذلك هو مرجأ أصلاً. كل ذلك هو ما يعنيه فعل "يلتحم" *Intersum* (٢٤).

يحتمل، فى التدفق اليومى للصور الفوتوغرافية، فى آلاف الأشكال من الاهتمامات التى تبلى، أن الجوهر "ذلك - كان - موجوداً"، لا يكون مكبوتاً (فالجوهر لا يمكن كبحه)، ولكن يعاش دون اكتراث، فى ملمح غنى عن البيان. تلك هى اللامبالاة التى أيقظتنى منها للتوصيرة حديقة الشتاء. وفقاً لنظام متناقض، بما أننا عادة ما نتحقق من الأشياء قبل أن نعلن أنها "حقيقية"، تحت تأثير خبرة جديدة، خبرة الكثافة. استنتجت من حقيقة الصورة، واقعية أصلها. لقد مزجت الحقيقة والواقع فى شعور متفرد، وضعت فيه من الآن فصاعداً عبقرية الفوتوغرافيا، وبما أنه لا يوجد بورترية زيتى واحد، على افتراض أنه يبدو لى "حقيقياً"، لا يمكنه أن يفرض على أن مرجعيته قد وجدت بالفعل.

- ٣٣ -

أستطيع رواية ذلك بطريقة أخرى: ما يؤسس طبيعة الفوتوغرافيا، هو الوضع الساكن. لا تهم فترة الدوام الطبيعى (الفيزيائى) لهذا التموضع، حتى وإن كان واحداً من مليون من الثانية (نقطة اللبن لـ هـ. د. إدجرتون)، يوجد دائماً التموضع، فالوضع هنا لا يعد سلوكاً للهدف، ولا حتى تقنية للمصور، ولكن مهلة "بقصد" القراءة.

(٢٤) عملية تجميع الأشياء فى مكان واحد قبل فرزها وتصنيفها.

بالنظر إلى صورة، تنطوي نظرتي حتماً على التفكير في تلك اللحظة، مهما كانت قصيرة، التي وجد فيها شيء واقعي ساكناً أمام العين. أرجع جمود الصورة الراهنة إلى اللقطة الماضية، وهذه الوقفة هي التي تشكل الوضع. يفسر ذلك تبدل جوهر الصورة عندما تتحرك وتصبح سينما. في الصورة، هناك شيء ما قد تموضع أمام شباك الكاميرا الصغير وبقي كذلك إلى الأبد (هذا هو شعوري). ولكن في السينما، شيء ما قد مرّ أمام نفس هذه الفتحة الصغيرة. راح التوضع وانتفى بالاستمرار المتتالي للصورة، إنها فينومينولوجيا أخرى، ومن ثم فن آخر يبدأ، بالرغم من أنه مشتق من الفن الأول.

حضور الشيء في الفوتوغرافيا (في إحدى اللحظات الماضية) ليس مجازياً على الإطلاق، وليس كذلك بالمثل بالنسبة للكائنات الحية، ولحياتهم، باستثناء تصوير الجثامين. ومع ذلك: لو أن الصورة في هذه الحالة تبدو بشعة، يكون ذلك بسبب أنها تؤكد، إذا جاز التعبير، أن الجثمان حي، يوصفه جثماناً؛ إنه الصورة الحية لشيء ميت؛ إذ إن جمود الصورة هو بشكل ما نتيجة بليلة فاسدة بين مفهومين: الواقع والحي. بالتصديق على أن الموضوع كان بالفعل واقعاً، تُغري الصورة خلسة بالاعتقاد أنه حي، بسبب هذه الخدعة التي تجعلنا نعزو للواقع بشكل مطلق قيمة أسمى، وكأنها أبدية. ولكن بترحيل هذا الواقع نحو الماضي ("ذلك - كان - موجوداً")، توحى الصورة أنه ميت بالفعل. من الأفضل القول أيضاً إن الملمح الفريد للصورة (جوهرها) هو أن أحدهم شاهد المرجع (حتى لو تعلّق بأشياء) بلحمه ودمه، رآه شخصياً. بدأت الفوتوغرافيا من جهة أخرى، تاريخياً، في صورة فنّ للشخص، لهويته، لحالته المدنية، لما يمكننا تسميته، بكل معنى الكلمة، خصوصية الجسد. هنا أيضاً، من وجهة النظر الفينومينولوجية، تبدأ السينما في الاختلاف عن الفوتوغرافيا، وذلك لأن السينما (الخيالية) تمزج بين وضعين: أولهما "ذلك - كان - موجوداً" بالنسبة للممثل وثانيهما للدور الذي يقوم به، بحيث إنني (شيء لم أعيشه أمام لوحة مرسومة) لا أستطيع أبداً

أن أرى أو أعيد رؤية فيلم أعرف أن بعض الممثلين فيه قد ماتوا، دون أن أشعر بنوع من الكآبة، كآبة الفوتوغرافيا نفسها. (أعيش هذه المشاعر نفسها وأنا أستمع إلى أصوات مطربين اختفوا).

أعيد التفكير في بورتريه ويليام كاسبى، "المولود عبداً"، التي صورها أفيدون. جوهر الصورة هنا مكثف، لأن الرجل الذي أشاهده كان عبداً: هو يشهد على أن العبودية وجدت، ليس بعيداً عنا. وهو يؤكد، ليس بشهادات تاريخية، بل بنظام جديد للبراهين، تجريبية إلى حد ما، على الرغم من أنها تتعلق بالماضى، وليست فقط براهين استدلالية: البرهان وفقاً - للقديس - توماس - ناشداً - لئس - المسيح - المبعوث حياً. أتذكر أنني احتفظت لوقت طويل بصورة قصصتها من مجلة - ضاعت مثل كل الأشياء التي تحفظ بعناية فائقة - تعرض سوقاً للعبيد. يقف سيد العبيد بقبعته، والعبيد في ملابس تكشف عوراتهم، جالسين. أكرر أنها: صورة، وليست رسماً، لأن رُعبى وافتتانى الطفولى أتى من هذا، من اليقين أن ذلك قد وجد. ليست مسألة صحة، ولكن مسألة واقع. لم يكن المؤرخ قط هو الوسيط، العبودية كانت دون وساطة، والواقعة صارت ثابتة دون منهج.

- ٣٤ -

عادة ما يقال إن الرسامين هم الذين اخترعوا الفوتوغرافيا (حين نقلوا إليها الكادر، والمنظور الألبرتى albertinienne^(٣٥)، وعلم بصريات الغرفة المظلمة). أقول: لا، بل هم الكيميائيون. لأن الجوهر "ذلك - كان - موجوداً" لم يكن ممكناً إلا من اليوم

(٣٥) نسبة إلى ألبرتى عالم الرياضيات (١٤٠٤ - ١٤٧٢) تمثل أعماله الأساس الرياضى لفكرة المنظور الهندسى، ومن أعماله المهمة ما كتبه عن قوانين المنظور الرياضى والهندسى فى اللوحات الفنية.

الذى سمح فيه ظرف علمى (وهو اكتشاف أن أملاح الفضة حساسة للضوء) بالتقاط وطبع الأشعة المضيئة الصادرة من مختلف الأشياء المنيرة بشكل متنوع. الصورة هي حرفياً انبعاث للمرجع، فمن جسد واقعى، كان هناك، انطلقت إشعاعات لمستنى لتوها، أنا الموجود هنا. لا تهتم الفترة التى استغرقها الانتقال، صورة الوجود المفقود مسّنى للتو مثل أشعة نجم مرجأة. نوع من الحبل السرى يربط جسم الشئ المصور بنظرتى المحدقة، فالضوء، رغم أنه غير محسوس، هو هنا وَسَطَ مجسد، أقتسم ملمسه مع مَنْ تم تصويرهم من قبل.

يبدو أن "صورة" فى اللاتينية سُميت: "الصورة الضوئية المعبرة" *imago lucis op- era expressa*، بما يعنى: صورة كاشفة، "منبعثة"، "منتصبة"، "مستخرجة" (مثل عصير الليمون) بفعل الضوء. وإذا كانت الصورة الفوتوغرافية تنتمى إلى عالم مازال لديه قدر من الحساسية للأسطورة، لن يفوتنا أن نبتهج أمام غنى الرمز. الجسد المحبوب صار خالداً بواسطة معدن نفيس، الفضة (أثر تاريخى وترف)؛ لذلك يجب أن نضيف فكرة أن هذا المعدن حى، مثل كل معادن الكيمياء القديمة.

من الجائز لأننى قَرِحَ (أو متكثّر) لمعرفة أن الشئ المنتمى للزمن القديم، بواسطة إشعاعاته المباشرة (بوميضه)، قد مسّ بالفعل السطح الذى سوف يمسه نظرى بدوره، وبأئنى لست مفرماً كثيراً باللون. فى عمل مجهول المصدر من عام ١٨٤٢، على نهج المصور الفرنسى لويس داجوير *Daguerreotype*، يظهر رسم لرجل وامرأة على مُدلاة تم تلوينها فيما بعد بواسطة المنمنم الذى يعمل بمعمل التصوير. دائماً كان لدى انطباع (لا أهمية لما يحدث فى الحقيقة) أن اللون استعمل بنفس الطريقة فى كل الصور، طلاءً وُضع فى وقت لاحق لطمس الحقيقة الأصلية للصورة الأبيض والأسود. اللون هو إضافة مُزيّفة بالنسبة لى، مُستحضر تجميلى (مثل الذى نطلى به الجثامين)، لأن ما يهمنى ليس "حياة" الصورة (فكرة أيديولوجية خالصة) ولكن اليقين بأن الجسم المصور لمسنى لتوه بأشعته الخاصة، وليس بضوء أضيف.

(وعليه، فإن صورة حديقة الشتاء، مهما كانت باهتة، هي بالنسبة لى كنز الأشعة
التي انبعثت من أمى عندما كانت طفلة، من شعرها، من بشرتها، من رداؤها، من
نظرتها، فى ذلك اليوم.)

- ٣٥ -

لا تذكرنا الفوتوغرافيا بالماضى (لا يوجد تأثير بروسى *proustien* فى الصورة).
التأثير الذى تحدثه فى نفسى ليس هو إمكانية إرجاع ما تم محوه (بالزمن، والمسافة)
ولكن إثبات أن ما أراه قد وُجد بالفعل. بيد أن هذا تأثير مُخزٍ تماماً. دائماً تدهشنى
الصورة، دهشة تنوم وتتجدد، بشكل لا ينضب. من الجائز أن هذه الدهشة، هذه
المثابرة، تمتد حتى المضمون الدينى الذى تكيّفت معه. لا شىء يمكن فعله، تتصل
الفوتوغرافيا فى شىء ما بالبعث. ألا نستطيع أن نقول عنها مثلما قال البيزنطيون عن
صورة المسيح الذى خضب منديل تورينو *le Suaire de Turin*، أى أنها لم تصنع بيد
إنسان، *acheiropolétos*؟^(٣٦) ما هم جنود بولنديون يأخذون قسماً من الراحة فى
ساحة القتال (كيرتيز ، ١٩١٥)، لا شىء غير عادى، إلا هذا، ما من رسام واقعى
سوف يبرهن لى، أنهم كانوا هناك ، ليس ما أراه ذكرى، ولا خيلاً، ولا إعادة تشكيل،
ولا قطعة مايا *Maya*^(٣٧)، مثل تلك التى يقدمها الفن بإسراف، ولكنه الواقع فى حالة
الماضى. الماضى والواقعى فى نفس الوقت. ما تُقدمه الصورة من تغذية لعقلى (على
الرغم من أن عقلى لا يشبع أبداً)، هو رجفة الفعل المختصر الذى لا يمكنه التحول إلى
حلم يقظة (قد يكون هذا تعريف الساتورى *satori*)، هو اللفز البسيط للمواكبة. صورة

(٣٦) صورة غير مصنوعة بواسطة البشر، أو بمعجزة ما، من مثل بعض الأيقونات المسيحية للعداء والمسيح
فى بعض الكنائس التى يدعى أنها ليست من عمل البشر.

(٣٧) نسبة إلى حضارة المايا القديمة فى أمريكا اللاتينية.



"هل من الممكن أن يكون إرنست لا يزال يعيش اليوم: ولكن أين؟ كيف؟ يا لها من حكاية!"

أ. كيرتيز: A.Kertesz إرنست Ernest. باريس، ١٩٣١.

مجهولة تعرض حفل زفاف (في إنجلترا)، خمسة وعشرون شخصاً من كل الأعمار، فتاتان صغيرتان، طفل؛ أقرأ التاريخ وأحسب: ١٩١٠، إذن، بالتأكيد، مات الجميع، ما عدا ربما الفتاتين الصغيرتين والطفل (سيدتان مستتان، ورجل عجوز، الآن). حينما أرى شاطئ بياريتز Biarritz سنة ١٩٢١ (لارتيغ Lartigue) أو جسر الفنون سنة ١٩٢٢ (كيرتيز)، أقول لنفسى: "من الجائز، كنت هناك". هذا أنا، من الجائز، بين السابحين أو المارة، فى إحدى تلك الصيفيات بعد الظهر، حيث كنت أركب الترام من (بايون) Bayonne، للذهاب للسباحة على الشاطئ الكبير، أو فى صباح يوم أحد، قادماً من منزلنا، فى شارع جاك كالو Jacques Callot، حيث كنت أعبّر الجسر للذهاب إلى كنيسة لوراتوار l'Oratoire (الرحلة المسيحية من مراهقتى).

التاريخ يشكل جزءاً من الصورة، ليس لأنه ينم عن طراز (هذا لا يعنينى)، بل لأنه يجعلنى أرفع رأسى، يسمح لى بتقدير الحياة والموت، والانقراض الحتمى للأجيال. من الممكن أن إرنست Ernest، تلميذ صغير صورّه (كيرتيز) عام ١٩٢١، لا يزال يعيش اليوم (ولكن أين؟ كيف؟ يالها من حكاية!). أنا مرجع كل صورة، وفى ذلك ما يستحث دهشتى، طارحاً على نفسى السؤال الأساسى: لماذا أعيش هنا والآن؟ بالطبع تطرح الفوتوغرافيا، أكثر من أى فن آخر، حضوراً فورياً للعالم، حضوراً متزامناً co-presence. ولكن هذا الحضور ليس فقط على صعيد سياسى (المشاركة بالصورة فى الأحداث المعاصرة)، ولكن أيضاً على صعيد ميتافيزيقى. كان فلوبيير Flaubert يسخر من بوفار Bouvard وبيكوشيه Pecuchet (ولكن هل سخر حقاً؟) وهما يتساءلان عن السماء والنجوم، والزمن، والحياة، والأبدية ... إلخ. هذا هو نوع الأسئلة التى تطرحها على الفوتوغرافيا: أسئلة تنشأ من ميتافيزيقا "حمقاء" أو بسيطة (الأجوبة فى المعقدة): على الأرجح هى الميتافيزيقا الحقيقية.

لا تقول الصورة (حتمًا) ما لم يعد كائنًا، ولكن فقط وبالتأكيد ما كان. هذا الفرق قاطع. أمام صورة، لا يتخذ الوعي بالضرورة الحنين سبيلًا للذكرى (كم هي الصور التي تقع خارج الزمن الفردي)، ولكن كل صورة توجد في العالم، يكون طريق اليقين مسارها. جوهر الصورة هو التصديق على ما تمثله، تلقيت يومًا من مصوّر فوتوغرافي صورة لى، لم أتمكن رغم محاولاتي الجاهدة، من تذكر أين التقطت، تفحصت رباط العنق والسترة لاكتشف فى أية ظروف ارتديتهما، جهد ضائع. ومع ذلك، لأنها كانت صورة فوتوغرافية لم أتمكن من إنكار أنني كنت هناك، (حتى لو لم أعرف أين). هذا التشوه بين التأكد والنسيان سبب لى نوعًا من الدوار، مثل قلق بوليسى (فكرة فيلم الانفجار لم تكن بعيدة). ذهبت لافتتاح معرض التصوير كما لو كنت ذاهبًا إلى تحقيق، ذهبت لى أعلم أخيرًا ما لم أكن أعرفه عن نفسى.

ذلك اليقين، لا يمكن أن تقدمه لى أية كتابة. يكمن شقاء اللغة (وربما لذتها أيضًا) فى عدم قدرتها على التصديق على نفسها، جوهر اللغة هو من الجائز هذه العنة، أو لى نتحدث بإيجابية: اللغة هى بطبيعتها خيالية. يتطلب محاولة جعل اللغة غير خيالية منظومة هائلة من الإجراءات، نحن نستدعى المنطق، أو إذا تعذر، القسم، ولكن الفوتوغرافيا لا يعنينا جميع الوسائط. هى لا تَخْتَرع، هى التوثيق نفسه، الحيل النادرة التى تسمح بها، ليست نزيهة؛ على العكس من ذلك، هى خدع، الفوتوغرافيا لا تُجهد إلا عندما تُخدع. هى نبوءة معكوسة: مثل كاساندر ^(٢٨) cassandre، ولكن العيون المثبتة على الماضى، لا تكذب أبدًا. أو بالأحرى، يمكن أن تكذب فيما يخص معنى الشئ، المفروض بطبيعته، ولكن ليس فيما يخص وجوده. الفوتوغرافيا عاجزة فيما يخص

(٢٨) كاسندر **Cassandre** شخصية فى ملحمة حرب طروادة، منحها أبولو القدرة على التنبؤ مقابل حبها له، فلما لم تف بوعدها جعل نبوءاتها تتحقق دائمًا بصورة معكوسة.

الأفكار العامة (فيما يخص الخيال)، إلا أن قوتها مع ذلك أكبر من أى شيء يستطيع العقل البشرى، أو استطاع أن يتصوره ليؤكد لنا الواقع ، ولكن هذا الواقع لم يكن مطلقاً سوى عرضى (هكذا، ليس أكثر).

كل صورة هي شهادة بالحضور، هذه الشهادة هي الإزعاج الجديد الذى أدخله الاختراع إلى عائلة الصور. الصور الأولى التى تأملها الإنسان (نيبس أمام المائدة المنصوبة، على سبيل المثال) بدت له متشابهة تماماً للوحات مرسومة (مازالت الغرفة مظلمة). لقد عرف، مع ذلك، أنه وجد وجهاً لوجه أمام مسخ (يمكن لساكّن المريح أن يشبه الإنسان). تلقى وعيه الموضوع الذى لقيه خارج أى محاكاة، مثل البلازما (الهيئة الخارجية) لما كان موجوداً. لا صورة، ولا واقع، بل وجود جديد، بالفعل، واقع لم نعد نستطيع لمسّه.

من الجائز أن لدينا مقاومة لا تقهر للإيمان بالماضى، بالتاريخ، وإن كان فى شكل أسطورة. وضعت الفوتوغرافيا، لأول مرة، نهاية لهذه المقاومة. الماضى من الآن فصاعداً مؤكد مثله مثل الحاضر، ما نراه على الورق هو أيضاً مؤكد مثل ما نلمسه. هذا هو حلول الفوتوغرافيا^(٣٩) - وليس، مثلما قيل، حلول السينما - الذى يقتسم تاريخ العالم.

ولأن الفوتوغرافيا هي بالتحديد موضوع أنثروبولوجى جديد، فإنها تنجو، كما يبدو لى، من المناقشات الاعتيادية عن الصورة. الموضة الشائعة، فى الوقت الحاضر، لدى الشارحين للفوتوغرافيا (علماء الاجتماع والباحثون فى الدلالة)، هي النسبية الدلالية. لا يوجد "واقع" (ازدراء كبير "للواقعيين" الذين لا يرون أن الصورة دائماً مشفّرة) لا شيء غير الخدعة. فرض *Théorie*، وليس طبيعة *Physis*. وكما يقولون فإن

(٣٩) لوجدر Legedre.



الصورة الأولى.

نيبس Niepce، المائدة المنصوبة، حوالي ١٨٢٢

الصورة غير معادلة analogon للعالم^(٤٠)، ما تمثله مصنوع، لأن علم البصريات الفوتوغرافي خاضع للمنظور الألبرتي albertinienne (التاريخي تماماً) ولأن التسجيل على الصورة السلبية يجعل من موضوع ثنائي الأبعاد موضوعاً ثلاثي الأبعاد. هذه المناقشة غير ذات جدوى، لا شيء يمنع الصورة من أن تكون تماثلية، ولكن في نفس الوقت، ليس لجوهر الصورة علاقة البتة مع المماثلة (ملمح تشترك فيه مع كل أنواع التمثيلات). لا يظن الواقعيون، الذين أنتمى إليهم، والذين كنت بالفعل أحدهم حين أكدت على أن الصورة الفوتوغرافية هي صورة غير مشفرة - حتى وإن كانت بعض الشفرات، لأمر بديهي، تؤثر في قراءتنا لها - لا يظنون أن الصورة هي "نسخ" للواقع، إنما بعث لواقع مضي، سحر، وليس فناً. أن نتساءل هل الصورة تماثلية؟ أو مشفرة؟ ليس وسيلة جيدة للتحليل. المهم، هو أن الصورة تمتلك قوة راصدة، والرصد هنا لا يتعلق بالموضوع، بل بالزمن. من الوجهة الفينومينولوجية، تفوق سلطة التصديق في الصورة سلطة التمثيل.

- ٣٧ -

يقول سارتر إن جميع الكتاب يتفقون على ملاحظة فقر الصور التي تصاحب المادة المقروءة في الرواية، لو استولت على هذه الرواية، لا مساحة لصورة ذهنية. ترد على قلة الصورة في القراءة كلية الصورة في الصورة الفوتوغرافية، ليس فقط لأنها في حد ذاتها صورة، ولكن لأن هذه الصورة شديدة الخصوصية تدعى أنها تامة الاكتمال، فزنية، لو أمكننا القول تلاعباً بالألفاظ، الصورة الفوتوغرافية زاخرة، مكتظة: لا يوجد مكان، لا يمكن إضافة شيء إليها.

(٤٠) بيسير Beceyro.

فى السينما، رغم أن المادة الخام فوتوغرافية، لا تتميز الصورة فيها بذلك الاكتمال (وهذا من حظ السينما). لماذا؟ لأن الصورة المتدفقة، مدفوعة ومسحوبة، تون توقف تجاه مشاهد أخرى. فى السينما، تون شك، هناك دائماً مرجع فوتوغرافى، ولكن هذا المرجع ينقلت، لا يقدم أى دعم لواقعه، يعارض وجوده القديم، يتمسك بى، هو ليس شيئاً. العالم الفيلمى مثل العالم الواقعى مدعوم بالافتراض "أن الخبرة سوف تستمر بشكل متواصل فى التدفق بنفس الأسلوب التكوينى"^(٤١). ولكن الصورة الفوتوغرافية تكسر "الأسلوب التكوينى" (هنا تكمن دهشتها). هى تون مستقبل (هنا يكمن تأثيرها، وسوداويتها)، لا يوجد فيها أى استباق^(٤٢)، فى حين أن السينما استباقية^(٤٣)، ومن ثم لا مجال فيها للسوداوية على الإطلاق (ماهى إذن؟ حسناً، هى ببساطة "عادية"، مثل الحياة). بسكون، تتراجع الصورة الفوتوغرافية من العرض إلى الحفظ.

يمكننى أن أقول ذلك بطريقة أخرى. ها هنا من جديد صورة حديقة الشتاء. أنا وحيد أمامها، معها. الدائرة مغلقة، لا يوجد مخرج. أعانى، ساكناً. عوز عقيم، وحشى. لا أستطيع إنكار حزنى، لا أقوى على ترك نظرتى تتحول. لا وجود لأى ثقافة يمكنها أن تساعدنى على الحديث عن هذه المعاناة التى أعيشها كاملة على مستوى محبوبة الصورة (ولهذا، لا أستطيع قراءة صورة فوتوغرافية على الرغم من شفراتها). الصورة، صورتى، بلا ثقافة: حينما تكون مؤلمة، لا شىء فيها يمكن أن يحول الحزن إلى حداد. وإذا كان الجدل هو هذا الفكر الذى يتحكم فيما يقبل الفساد ويحول النفى الذى

(٤١) هوسرل: Husserl.

(٤٢) protension .

(٤٣) protensif .

يمثله الموت إلى مقدرة على العمل^(٤٤). إذن، فالصورة غير جدلية، هي مسرح مشوه حيث لا يستطيع الموت "تأمل نفسه"، الارتداد واستبطان ذاته. أو هي أيضاً، المسرح الميت للموت، سقوط حق التراجيديا، مستبعدة أي تطهير، وأي تنفيس. عشقت رسماً، لوحة، تمثالاً، ولكن صورة فوتوغرافية؟ لا أستطيع سجنها في طقس (على مكتبي، في ألبوم) إلا إذا، بطريقة ما، تجنبنا النظر إليها (أو تجنبنا نظرها إلى)، مُحْبَطاً عن قصد كمالها غير المحتمل، وحتى عن طريق عدم انتباهي، أقوم بإلحاقها بفئة مختلفة تماماً من الفيتيشية: الأيقونات، التي يتم تقبيلها دون رؤيتها، في الكنائس اليونانية، على السطح الزجاجي.

يمنح سكون الزمن نفسه في الصورة الفوتوغرافية، إلا في صيغة مفرطة، وحشية، الزمن مخنوق (من هنا العلاقة مع اللوحة الحية *Tableau vivant*، حيث النموذج الأسطوري هو سمات الجميلة النائمة). أن تكون الصورة "معاصرة"، ممتزجة بحياتنا اليومية الأكثر تأججاً، لا يمنع أن يكون بها مركز غامض لا يتبع ما هو أنا، ركود غريب، ركود التوقف (لقد قرأت أن سكان قرية مونتيال *Montiel* في مقاطعة ألباسيت *Albacete*، عاشوا هكذا، ثابتين على زمن توقف في الماضي، حتى أثناء قراعتهم للجرائد واستماعهم للمذياع)^(٤٥). لم تكن الصورة قط، جوهرياً، ذكرى (حيث الزمن النحوي سيكون الماضي التام، في حين أن زمن الصورة، هو بالأحرى ماضٍ مبهم)، ليس هذا فقط، بل إنها تعوقها، سرعان ما تصبح ذكرى مضادة. في يوم ما، كان أصدقاء لي يتكلمون عن ذكريات الطفولة، كان لديهم منها. أمّا أنا، الذي كنت منذ لحظات أنظر إلى صوري القديمة، فلم يتبق لي منها شيء. محوياً بتلك الصور، لم أستطع أن أواسي نفسي بأبيات ريلكي *Rilke*: "مثل عنوبة الذكرى، يغمر العنبر

(٤٤) لاکو لابرث Lacoue Labarthe ، ١٨٧ .

(٤٥) جايرال Gayral ، ٢١٧ .

الغرفة". الصورة لا تغمر "الغرفة"، لا رائحة، لا موسيقى، لا شيء سوى الشيء الجاهل. الصورة عنيفة، ليس لأنها تعرض عنفاً، بل لأنها في كل مرة تملأ المشهد بالقوة، ولا شيء فيها يمكن رفضه، أو تحويله (وإذا كنا أحياناً نقول الصورة حلوة، فهذا لا يتناقض مع عنفها، يقول كثيرون إن السكر حلوة، ولكني أجده عنيفاً).

- ٢٨ -

كل هؤلاء المصورين الفوتوغرافيين الشباب الذين يجوبون العالم، يكرسون أنفسهم للقبض على الراهن، لا يعرفون أنهم عملاء للموت. تلك هي الطريقة التي يضطلع بها زماننا بالموت. تحت حجة ناكرة تماماً للحى، يكون المصور هو الحرفى المختص بمعنى ما.

لأن الصورة، تاريخياً، يجب أن يكون لديها علاقة تاريخية ما مع "أزمة الموت"، التي بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(٤٦)، ومن جانبى فضلت أنه بدلاً من إرجاع حلول الفوتوغرافيا باستمرار لسياقها الاجتماعى والاقتصادى، يجب أن نتساءل أيضاً عن الصلة الأنثروبولوجية بين الموت والصورة الجديدة. لأن الموت، فى مجتمع ما، لابد أن يكون فى مكان ما. لو أنه لم يعد موجوداً (أو أصبح موجوداً بصورة أقل) فيما هو دينى، لابد أن يكون فى مكان آخر. من الجائز فى هذه الصورة التى تنتج الموت رغبة فى الحفاظ على الحياة. ولأن الفوتوغرافيا معاصرة لتراجع الطقوس، من المحتمل أن تكون قد استجابت، فى مجتمعنا الحديث، لتطفل موت رمزى، خارج الدين، بعيداً عن الطقس، نوع من الغوص المفاجئ فى الموت الحرفى. الحياة/الموت: يتم اختزال هذا التصور الشامل إلى نقلة بسيطة تفصل الوضع الأولى عن الورقة النهائية.

(٤٦) Morin ، ٢٨١ .

مع الصورة، ندخل في الموت المسطح. في يوم ما، عند الخروج من أحد الدروس، قال لي أحد الأشخاص بازدراء: "أنت تتكلم بسطحية شديدة عن الموت" كما لو أن الرعب من الموت لم يكن هو بالضبط تفاهته! الرعب هو هذا: لا شيء يقال عن موت أحب الناس إليّ، لا شيء يقال عن صورته، التي أتاملها دون أن أتمكن مطلقاً من سبر أغوارها، من تحويلها. "الفكرة" الوحيدة التي يمكن أن تراودني هي أنه في نهاية هذا الموت الأول، يسجل موتى الشخصى. بين الاثنين، لا شيء آخر، سوى الانتظار، ليس لدى منهل آخر سوى هذه السخرية: الحديث عن "لا شيء يقال".

لا أستطيع تحويل الصورة إلا إلى نفاية: إمّا إلى الدُرَج أو إلى سلة المهملات. ليس فقط لأنها تطبع بوجه عام على نوع من الورق (الهالك)، إنما، حتى لو أنها مثبتة على مواد أكثر صلابة، تظل قابلة للزوال. مثل الكائن الحى، ولدت من حبيبات الفضة التي تنبت، تتفتح في لحظة، ثم تشيخ^(٤٧). يهاجمها الضوء، الرطوبة، تبهت، تنطفئ، تتلاشى. ولا يبقى إلا رميها. كانت المجتمعات القديمة تدبر أمرها لكي تبقى الذكرى - بديل الحياة - أبدية، وعلى الأقل الشيء الذي ينطق بالموت يظل هو نفسه خالداً: فكان الصرح الأثرى. ولكن بجعل الصورة، الهالكة، الشاهد العمومى وبشكل ما الطبيعى "لما كان"، تخلى المجتمع المعاصر عن الأثر. مفارقة: استحدثت نفس القرن التاريخ والتصوير الفوتوغرافى. ولكن التاريخ ذاكرة مصنوعة تبعاً لوصفات وضعية، خطاب فكرى خالص يلغى الزمن الأسطورى. والصورة شهادة أكيدة، لكنها شهادة عابرة، حتى إن كل شيء، اليوم، يجهز جنسنا لهذا العجز. لن نعود قادرين فى القريب العاجل، على إدراك النيمومة، وجدانياً أو رمزياً. عصر الفوتوغرافيا هو أيضاً عصر الثورات، والاحتجاجات، والاغتيالات، والانفجارات، باختصار نفاذ الصبر، لكل ما ينكر النضج، وبلا شك، دهشة ذلك - كان - موجوداً سوف تختفى، هي الأخرى. لقد

(٤٧) برونو نيوتن Bruno Nuyetten.

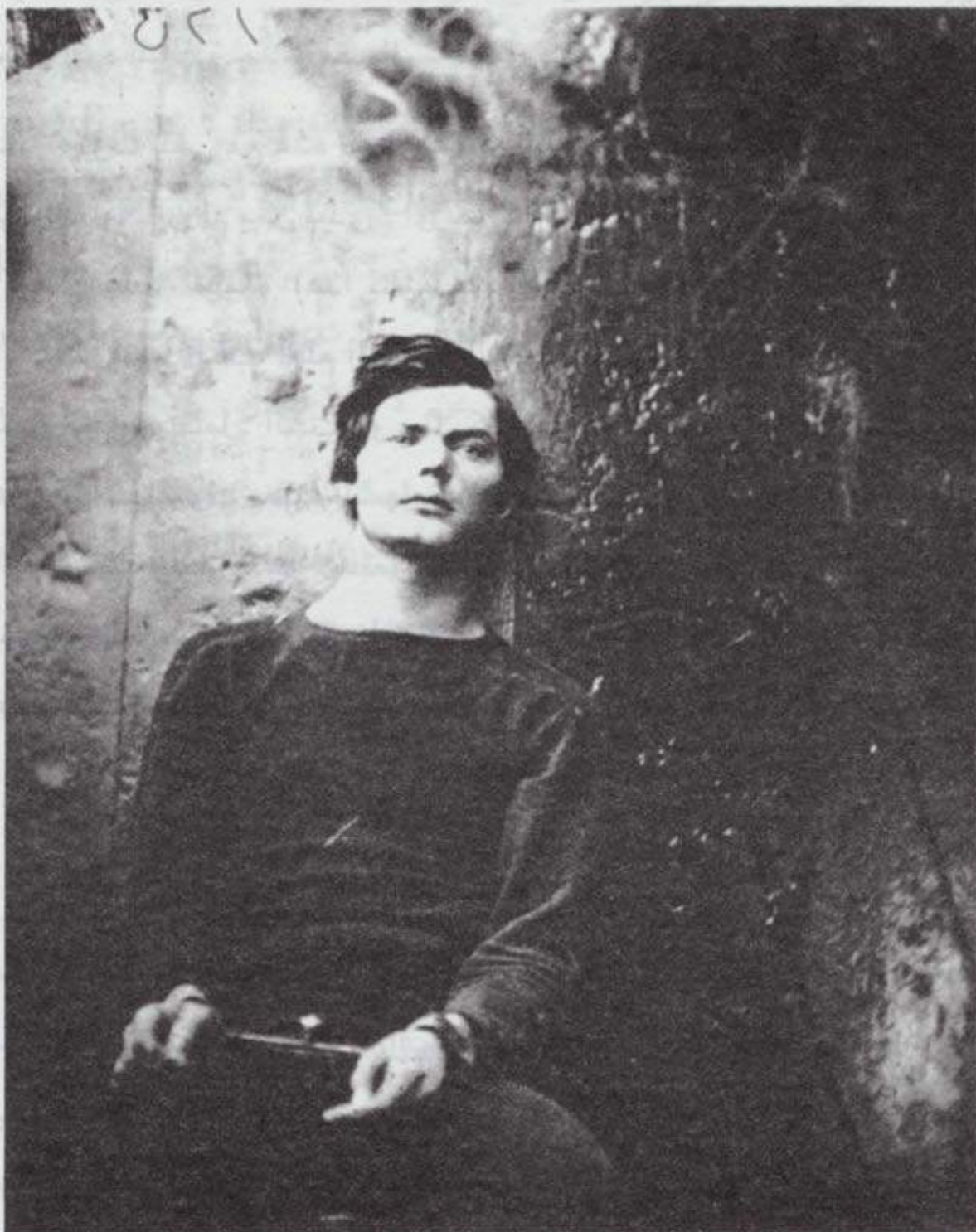
اختفت بالفعل. أمثل أنا، لا أعرف لماذا، أحد آخر الشهود (شاهد على ما سبق)، وهذا الكتاب هو أثره البالى.

ماذا سوف يُلغى مع هذه الصورة التى تَصْفَرُ، وتبهت، وتنمحي، وفى يوم سوف تلقى فى القمامة، إن لم يكن بيدي - وربما لا أقدر من باب التشاؤم - فعلى الأقل عند موتى؟ ليست فقط "الحياة" (هذا كان حياً، انتصبت حياً أمام العدسة)، ولكن أيضاً، أحياناً، كيف أقول؟ الحب. أمام الصورة الوحيدة التى أرى فيها أبى وأمى معاً، أعرف أن الاثنين تحابا، أتأمل: الحب هو مثل كنز سوف يختفى إلى الأبد، لأنه عندما لن أكون هنا، لا أحد سوف يمكنه الشهادة على ذلك، ولن يبقى سوى الطبيعة غير المبالية. ها هنا تمرُّق بالغ الحدة، غير محتمل، لقد فهم ميشيليه وحده ضد عصره التاريخ على أنه احتجاج نابع من الحب، العمل على نوام، ليس فقط الحياة، ولكن أيضاً ما كان يطلق عليه، فى مفرداته، التى بَطَلَتْ صرعتها اليوم، الخير، العدل، الوحدة، إلخ.

- ٣٩ -

من الوقت الذى كنت أتساعل فيه (فى بداية هذا الكتاب التى صارت بعيدة الآن) عن تعلقى ببعض الصور الفوتوغرافية، اعتقدت أنه يمكننى تمييز حقل من الفائدة الثقافية (الستوديو) عن تلك الموجة غير المتوقعة التى تعبر أحياناً هذا الحقل، والتى أسميتها البونكتوم. أعرف الآن أنه يوجد بونكتوم آخر ("خاصية" أخرى) ليست كباقي "التفاصيل". هذا البونكتوم الجديد، الذى لم يعد شكلاً، بل كثافة، هو الزمن، هو البروز الممزق لجوهر ("هذا ما كان")، هو تمثيله الخالص.

فى عام ١٨٦٥، أقدم الشاب لويس باين Lewis Payne على اغتيال وزير الخارجية الأمريكى، و. هـ. سيوارد W.H.Seward. صوره الكسندر جاردنر Alexander Gardner فى زنزانته، حيث كان ينتظر إعدامه شفقاً. الصورة جميلة، الشاب أيضاً، هذا هو



"لقد مات و لسوف يموت..."

الكسندر جاردنر Alexander Gardner:

بورتريه للويس باين Lewis Payne، ١٨٦٥.

الستوديو. ولكن البونكتوم هو سوف يموت. أقرأ في نفس الوقت: هذا ما سوف يكون وهذا ما كان. ألاحظ برعب مستقبل سابق حيث الموت هو الرهان، بإعطائي الماضي المطلق للوضع (البُهم)، تروى لى الصورة عن الموت فى المستقبل. ما يؤلنى، هو اكتشافى لهذا التكافؤ. أمام صورة أمى وهى طفلة، قلت لنفسى: سوف تموت. ارتعدت، مثل المريض العقلى لوينيكوت Winnicott، من الفاجعة التى حدثت بالفعل. سواء كان الشخص فى الصورة مات بالفعل أم لا، كل صورة فى تلك الفاجعة.

هذا البونكتوم، ممحو إلى حد ما تحت وفرة وتباين الصور الفوتوغرافية المعاصرة، ويُقرأ بحيوية فى الصورة التاريخية. دائماً يوجد فيها انسحاق للزمن، هذا مات وذاك سوف يموت. هاتان الفتاتان الصغيرتان اللتان تنظران إلى طائرة بدائية فوق قريتهما (ترتديان ملابس تشبه ملابس أمى وهى صغيرة، تلعبان بالطوق)، كم هما مفعمتان بالحيوية! لديهما الحياة برمتها أمامهما، ولكن أيضاً هما ميتتان (اليوم)، لقد ماتتا إذن قبل الآن (بالأمس). إلى هذا الحد، ليس بى حاجة لتمثل جسد حتى أشعر بهذا النوار للزمن المنسحق. فى عام ١٨٥٠، صور أوجست سيلزمان August Salzmann، قريباً من القدس، الطريق إلى بيت لحم: لا شئ سوى أرض حجرية وشجر زيتون، ولكن ثلاثة أزمنة بلبت وعيى: حاضرى وزمن المسيح وزمن المصور، كل ذلك على منصة "الواقع"، وليس من خلال بلورة النص، خيالياً كان أم شعرياً، الذى لم يكن أبداً ذا مصداقية حتى الجنود.

- ٤٠ -

لأن كل صورة تحتوى دائماً على هذه الإشارة الحاسمة لموتى المستقبل، فهى، كيفما بدا إرتباطها بالعالم الفعلى للأحياء، فإنها تستوقف كل واحد منا، واحداً واحداً، خارج كل تعميم (ولكن ليس خارج كل تجاوز). علاوة على ذلك، تعنيك الصور وحدك، باستثناء تلك الصور الخاصة بالمراسم المزعجة لبعض الأمسيات المملة. لا أطيع

العرض الخاص لفيلم (جمهور أقل مما ينبغي، ومجهولون أقل مما ينبغي)، ولكنى أحتاج أن أكون وحيداً أمام الصور التى أتطلع إليها. مع نهاية العصور الوسطى، استبدل بعض المؤمنين القراءة، والصلاة الفردية، والخفيضة، والاستبطانية، والتأملية (العبادة العصرية) *devotion moderna*، بالقراءة أو الصلاة الجماعية. هذا هو، فيما يبدو لى، نظام المشاهدة *spectatio*. قراءة الصور الفوتوغرافية العامة هى دائماً، فى عمقها، قراءة خاصة. هذا واضح بالنسبة للصور القديمة (التاريخية)، التى أقرأ فيها زمناً معاصراً لشبابى، أو لأمى، أو لأبعد من ذلك، لجدوى، وحيث أسقط وجوداً مرتبكاً، لذرية أنا الفصل الأخير منها. ولكن ذلك صحيح أيضاً بالنسبة للصور التى يبدو من النظرة الأولى أنه لا يربطها رابط، ولو مجازياً، بوجودى (على سبيل المثال، كل صور التقارير). تُقرأ كل صورة على أنها المظهر الخاص لرجعيتها، يتوافق عصر الفوتوغرافيا تماماً مع انبثاق الخاص داخل العام، أو بالأحرى مع استحداث قيمة اجتماعية جديدة، هى الإعلان عن الخاص. الخاص مستهلك كما هو على الملأ (يشهد على هذه الحركة العنوان المتواصل للصحافة ضد خصوصية النجوم والعقبان المتنامية للتشريع). ولكن بما أن الخاص ليس فقط سلعة (واقعة تحت القوانين التاريخية للملكية)، كما هو أيضاً، وأبعد من ذلك، المكان الثمين حتماً، الذى لا يقبل التصرف فى ملكيته، حيث صورتى فيه متحررة (متحررة من أن تُفنى)، وأنه الحالة الباطنية التى أعتقد أنها تمتزج مع حقيقتى، أو، لو أثرتنا، مع التصلب الذى شكل قوامى، أعيد بناء تقسيم العام والخاص، وبمقاومة ضرورية، أريد أن أعلن عن الباطن دون أن أفصح بالحميمية. أعيش الصورة والعالم الذى تمثل الصورة جانباً منه تبعاً لمنطقتين: الصور من جهة، وصورى الفوتوغرافية من جهة ثانية. من جهة نجد التراخى، والانفلات، والضجيج، والعرضية (حتى لو أصابنى الدهول المفرط)؛ ومن جهة ثانية نجد التأجج، والجرح.

(عادة، يُعرف الهاوى على أنه عدم نضج الفنان. شخص لا يستطيع - أولاً لا يريد - الارتفاع إلى مستوى إتقان المهنة. ولكن فى حقل الممارسة الفوتوغرافية،

الهاوى، على العكس، هو الحالة الاحترافية، لأنه هو الذى يمكنه قريباً من جوهر الصورة).

- ٤١ -

لو أننى أحب صورة، لو أنها تربكنى، أتمهل عندها. ماذا أفعل، أثناء كل الوقت الذى أمكث فيه هنا أمامها؟ أتطلع إليها، أتفحصها، كما لو أننى أريد أن أعرف أكثر عن الشيء أو الشخص الذى تمثله. كنت مستغرقاً فى عمق حديقة الشتاء، وجه أمى ضبابى، باهت، فى ردة فعل أولى، صرخت: "هى! هى حقاً! هى أخيراً!" الآن، أزعج أننى أعرف - أستطيع أن أقول على نحو واثق - لماذا؟ بماذا تتبدى؟ أرغب فى أن أطوق بالفكر الوجه المحبوب، جاعلاً منه حقلاً فريداً من الملاحظة المكثفة، أرغب فى أن أكبر هذا الوجه لكى أراه أفضل، لكى أفهمه أفضل، أعرف حقيقته (وفى بعض الأحيان، بسذاجة، أتعهد بالمهمة إلى الممثل). أعتقد أنه بتكبير التفصيـلة "بالتعاقب" (كل تكبير يولد تفاصيل أصغر من المرحلة السابقة)، سوف أصل أخيراً إلى كينونة أمى. ما فعله ماريى Marey وموى بريدج Muy-bridge، بصفتهم مصورين، أريد أن أفعله أنا، بصفتى مُشاهد: أفكك، أكبر، وكما يمكننا القول: أبطل، لكى أملك فى النهاية وقتاً للمعرفة. تبرز الصورة هذه الرغبة، حتى لو لم تُشَفِ غليلها، لا أستطيع أن يكون لدى الأمل الأحمق لاكتشاف الحقيقة، إلا لأن جوهر الصورة، هو بالتحديد ذلك ما كان موجوداً، ولأننى أعيش فى وهم أنه يكفى تنظيف سطح الصورة، لكى أصل إلى ما يوجد فى الخلف، التفحص يعنى أن تقلب الصورة، أن تدخل إلى عمق الورقة، أن تدرك وجهها الآخر (ما هو خفى هو بالنسبة لنا، نحن الغربيين، أكثر "حقيقية" مما هو مرئى). واحسرتاه، مهما تمنعت، لا أكتشف شيئاً، لو كبرت الصورة، لا يوجد سوى حبيبات الورق. ألغى الصورة لصالح مادتها، وإذا لم أكبرها، لو أننى اكتفيت بالتمعن، لا أحصل إلا على هذه المعرفة الوحيدة، التى حصلت عليها منذ وقت طويل، منذ نظرتى

الأولى الخاطفة، أن ذلك كان موجوداً بالفعل، بوران الصامولة لم يقدم شيئاً. أمام صورة حديقة الشتاء، أنا حالم ردىء يبسط يديه عبثاً للاستحواذ على الصورة، أنا جولو Golaud يصرخ "ملساء حياتي" لأنه لن يعرف أبداً حقيقة ميليزاند Mélaande. (لا تخفى ميليزاند شيئاً، لكنها لا تتكلم. مثل حال الصورة، لا تعرف كيف تحكى ما تجعلنا نراه).

- ٤٢ -

لو أن جهودي مؤلة، لو أشعر بانزعاج، هذا لأننى أحياناً أقترّب، أحترق، فى صور كنتك، أو من بأتى أدرك قسمات الحقيقة. هذا هو ما يحدث عندما أحكم على صورة ما أنها "مشابهة". رغم ذلك، أثناء إمعان النظر فيها، أكون مضطراً للتساؤل: من يشبه من؟ الشبه هو مطابقة، ولكن لأى شىء؟ لهوية. الآن، هذه الهوية غير محددة، بل متخيّلة، إلى درجة أننى أستطيع الاستمرار فى الحديث عن "الشبه"، دون أن أكون قد رأيت النموذج على الإطلاق. مثل أغلب بورتريهات نادار (أو اليوم لأفيدون): جيزو Guizot هو "شبيه"، لأنه مطابق لأسطوره رجلاً قاسياً. ديما Dumas متفاخر، مُشرق، لأننى أعرف اعتداده بنفسه وإبداعه. أوفنباخ Offenbach، لأنى أعرف أن موسيقاه تتسم بشىء ما من الروحانية (كما يشاع). روسينى Rossini يبدو مزيّفاً، بليداً (هو يبدو، إذن يشبه). مارسيلين ديبيورد فالمر Marceline Desbordes-Valmore ينطق وجهها بالطيبة، البهاء قليلاً، لأشعارها. لدى كروبوتكين kropotkin العيون المنيرة للمثالية الفوضوية ... إلخ.

أراهم جميعهم، أستطيع أن أطلق عليهم تلقائياً "المشابهون"، لأنهم يطابقون ما أنتظره منهم. برهان مضاد contrario، أنا الذى أشعر بأننى شخص متقلب، غير أسطورى amythique، كيف يمكن أن أعتبر نفسى "شبيهاً"؟ لا أشبه سوى صور أخرى لى. وذلك إلى ما لا نهاية. لا يوجد أحد إلا وهو نسخة من نسخة، حقيقية أو



"ينطق وجه مارسولين ديبيورد فالمر بالطيبة ، البهاء قليلاً ، لأشعارها ..."

نادار Nadar، مارسولين ديبيورد فالمر. Marceline Desbordes-Valmore. ١٨٥٧ .

ذهنية (كل ما أستطيع قوله أنه في بعض الصور أتجمل نفسي، أو لا أتجملها، حسبما أجد نفسي متوافقاً أم لا، مع الصورة التي أريد أن أقدمها عن نفسي). في مظهر مالكوف (هذا أول شيء نقوله عن البورتريه)، هذه الممثلة التخيلية مليئة بالفلو. سين من الناس أراني صورة لأحد أصدقائه كان قد حدثني عنه، ولم أره أبداً، ومع ذلك، قلت لنفسى (لا أعرف لماذا)، "أنا متأكد أن سيلفان Sylvain ليس كذلك". في حقيقة الأمر، تشبه الصورة أى شخص، باستثناء الشخص الذى تمثله. لأن الشبه يعود إلى هوية الذات، أمر سخيّف، مدنى بمعنى الكلمة، بل حتى جزائى؛ الصورة تقدم الذات "على اعتبار أنه يشبه ذاته" فى حين أننى أريد شخصاً كما هو فى ذاته". يتركبني الشبه غير راض، وعلى نحو ما متشكك (هى خيبة الأمل المحزنة بعينها التى كابدها أمام صور أمى الشائعة، فى حين أن الصورة الوحيدة التى أعطتني روعة حقيقتها، هى بالتحديد صورة ضائعة، بعيدة، لا تشبهها، هى صورة الطفلة التى لم أعرفها).

- ٤٣ -

ولكن هاهو الأكثر خداعاً، والأكثر اختراقاً من الشبه: الصورة الفوتوغرافية، أحياناً، تظهر ما لا نلمحه مطلقاً فى الوجه الحقيقى (أو المنعكس فى المرآة)، ملمح موروث، قطعة من المرء نفسه أو من أحد الأقارب منحدره من الأسلاف. فى إحدى الصور، لدى نفس "طلعة" عمى، الصورة تعطى قليلاً من الحقيقة، بشرط تجزؤ الجسد. ولكن هذه الحقيقة ليست هى حقيقة الفرد، الذى يظل من المتعذر اختزاله، هى حقيقة النسب. أحياناً أخطئ أو على الأقل أتردد: مدلاة تبين لقطة نصفية لامرأة شابة وطفلها، هى دون ريب أنا وأمى. ولكن لا، هى أمها وابنها (خالى). لا أرى ذلك كثيراً فى الملابس (الصورة، الأثيرية، لا تظهرهم إلا قليلاً) ماعدا تكوين الوجه. بين وجه جدتى ووجه أمى، حدث التلاقى، تجزيعات الزوج، والاب، التى أعادت تشكيل الوجه، وهكذا بالتعاقب وصولاً إلى (الوليد؟ لا شيء أكثر حيادية). بنفس الطريقة، هذه الصورة لأبى وهو صغير، لا علاقة لها بصورته رجلاً. ولكن بعض الأجزاء، بعض



الجزر.

الصورة من مقتنيات المؤلف

القسمات توصل وجهه بوجه جدتي وبوجهي، بمعنى من المعاني، رغماً عنه، يمكن للصورة الفوتوغرافية أن تظهر (بالمعنى الكيميائي للمصطلح)، ولكن ما تظهره هو استمرار ما للجنس البشري. يذكر بروست عند موت أمير بولينياك Polignac^(٤٨) (ابن وزير شارل العاشر Charles x)، أن "وجهه ظل عند وفاته مثل نسله، سابقاً لروحه الفردية".

الصورة الفوتوغرافية مثل الشيوخوخة، حتى في بهائها، تعري الوجه، كاشفة روحه الوراثة. يذكر بروست (مرة أخرى) عن شارل هاس Charles Haas^(٤٩) (نموذج شخصية سوان Swann) أنه كان لديه أنف صغير غير مقوس، ولكن الشيوخوخة رقت بشرته، فأظهرت الأنف اليهودي.

يقدم النسب هوية أقوى، أكثر تشويقاً من الهوية المدنية، وأكثر طمأنة أيضاً، لأن التفكير في الأصول يمنحنا السكينة، بينما التفكير في المستقبل يثيرنا، يقلقنا. ولكن هذا الاكتشاف يحبطنا، لأنه في نفس الوقت الذي يؤكد فيه على الدوام (والذي هو حقيقة النوع، وليس حقيقتي)، يفجر الفرق الغامض للأشخاص المنحدرين من نفس العائلة. ما العلاقة بين أمي وأجدادها، علاقة هائلة، أثرية، هوجولية^(٥٠)، مادامت تجسد المسافة غير الإنسانية للأصل.

- ٤٤ -

يجب إذن التسليم بهذا القانون: لا أستطيع النفاذ، وخرق الصورة الفوتوغرافية. لا أستطيع سوى مسح الصورة بنظرة، مثل السطح الأملس، الصورة مسطحة، بكل

(٤٨) ل. ب. كان L. P. Quint ، ٤٩ .

(٤٩) بينتر Painter ، ١٣٨ ، ٧٥١ .

(٥٠) أسلوب فيكتور هوجو في الكتابة، ويقال "هوجولي الأسلوب" . (المترجمة)

معاني الكلمة، ذاك ما يجب على قبوله. من الخطأ أن نربط الفوتوغرافيا، بحجة أصولها التقنية، بفكرة الممر المظلم (الغرفة المظلمة). ما يجب أن نقوله هو **الغرفة المضيئة cam-era lucida** (هكذا كان اسم ذلك الجهاز، السابق للفوتوغرافيا، الذي كان يسمع برسم موضوع من خلال منشور، عين على النموذج، والآخرى على الورق)، لأنه، من وجهة نظر الرؤية البصرية، جوهر الصورة هو أن تكون كلها في الخارج، دون حميمية، وفوق ذلك صعبة المنال وأكثر غموضاً من فكرة السريرة. بدون مغزى، ولكن مستدعية بعمق كل المعاني الممكنة. محجوبة إلا أنها جلية، لديها هذا الحضور الغياب الذي يصنع جاذبية وفتنة عروس البحر " (بلانشو Blanchot).

لو أن الصورة لا يمكن النفاذ إليها، يكون ذلك بسبب قوة بيانها. في الصورة، الموضوع يسلم نفسه برمته ورؤيتنا له يقينية^(٥١)، على عكس النص أو المدركات الأخرى التي تعطيني الموضوع بطريقة مشوشة، قابلة للجدل، وتحرضني بذلك على أن أرتاب فيما أتصور أنني أراه. هذا اليقين سيد مطلق لأن لدى متسعاً من الوقت لملاحظة الصورة بتمعن. ولكن أيضاً، عبثاً حاولت إطالة هذا الرصد، لا ينبئني بشيء. يكمن عند هذا التوقف للتأويل بالتحديد يقين الصورة. أنك نفسك في التحقق من أن ذلك ما كان موجوداً، يوجد هنا "اعتقاد أساسي" لأي شخص يحمل صورة في يده، "فكرة أولية" Urdoxa، حيث لا يوجد شيء يحوها، إلا لو برهن لي أن هذه الصورة ليست صورة فوتوغرافية. ولكن أيضاً، للأسف، كلما ازداد يقينها، عجزت عن قول أي شيء بصددتها.

- ٤٥ -

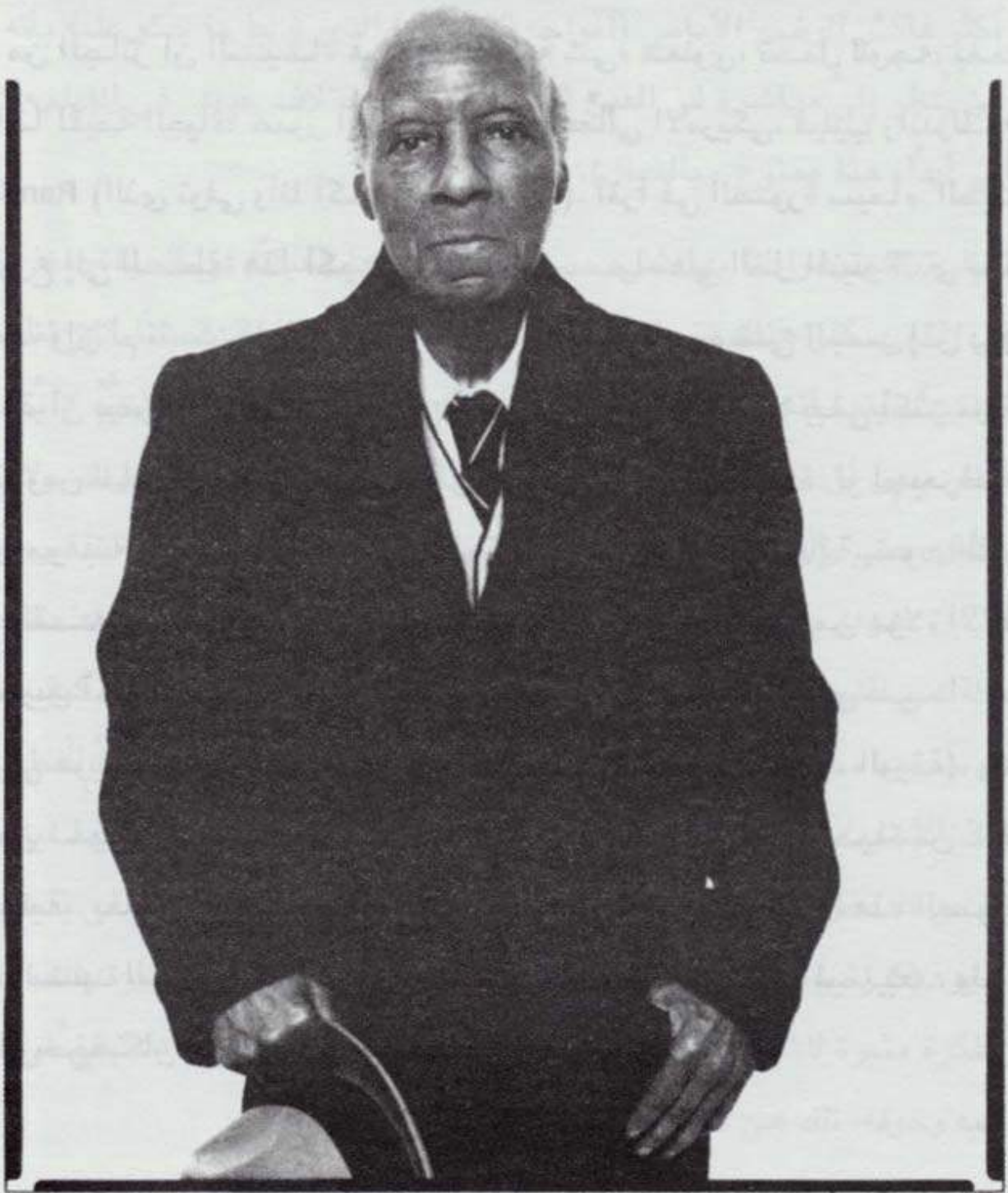
غير أنه، حالما يتعلق الأمر بشخص - وليس بشيء - يكون لدلالة الفوتوغرافيا رهان مختلف تماماً. رؤية زجاجة مصورة، فرع سوسنة، دجاجة، قصر، لا يلزم إلا

(٥١) سارتر Sartre ، ٢١ .

الواقع. ولكن أن ترى جسداً، وجهاً، ولا سيما إذا كان في الغالب، لشخص محبوب؟ بما أن الفوتوغرافيا (ها هو جوهرها) **توثق** وجود شخص ما، أريد أن أعثر عليه بالكامل، أعني أستعيده في جوهره، "مثلما هو في ذاته"، أبعد من مجرد الشبه، مدنياً كان أم موروثاً. هنا، تصبح سطحية الصورة أكثر إيلاماً، لأنها ليس بمقدورها أن تستجيب لرغبتى الحمقاء، إلا بشيء لا يوصف: جلاء الصورة (هو قانونها) ومع ذلك بعيد الاحتمال (لا أستطيع إثباته). هذا الشيء، هو السيماء.

سيماء الوجه لا تتحلل (بما أنني أستطيع أن أفكك، أن أبرهن عليه أو أرفضه، باختصار، أن أشك، وأحيد عن الصورة، التي هي بطبيعتها جلية تماماً. الجلاء، هو ما لا يريد أن يكون مفككاً). السيماء ليست معطى تخطيطياً، عقلانياً، كما تبدى الصورة الظلية (السلويت). ولا هي كذلك مجرد قياس - مهما كان معقداً - مثلما هو "الشبه". لا، السيماء هي ذلك الشيء المفرط الذي يُستدل عليه من الجسد إلى الروح، روح فردية صغيرة، سليمة في شخص، فاسدة في شخص آخر. وكذلك أتصفح صور أمي تبعاً لطريق أولى قادني لتلك الصرخة، غاية كل لغة: "هي ذاك!". في البداية بعض صور بلا قيمة، لا تعطيني منها سوى هويّتها الأكثر فظاظة، ومدنية. ثم صور عديدة، حيث كنت أقرأ فيها تعبيرها الذاتي: (صور قياسية، "مشابهة"). وأخيراً صورة حديقة الشتاء، حيث أقوم بأكثر من التعرف عليها (كلمة كبيرة)، حيث أعيد اكتشافها، صحوه فجائية، خارج "الشبه"، كشف حيث تتساقط الكلمات، وضوح نادر، وربما فريد لـ "هكذا، نعم، هكذا، ولا شيء أكثر".

السيماء (هكذا أُسمي، لعدم توفر الأفضل، التعبير عن الحقيقة) هي مثل إضافة عنيدة للهوية، متاحة بلطف، مجردة من أية "أهمية". السيماء تعبر عن الذات، ما دامت لا تتخذ أهمية. في هذه الصورة للحقيقة، الشخص الذي أحبه، الذي أحببته، ليس منفصلاً عن ذاته، هو في النهاية يتطابق. والمفرد في الأمر أن هذا التطابق هو نوع من التحول. جميع صور أمي التي استعرضتها كانت تشبه الأقنعة قليلاً، في الأخيرة،



" ما من نزوع إلى السُّلطة "

ر. أفيدون R.Avedon ، أ. فيليب راندولف A.Philip Randolph (العائلة). ١٩٧٦ .

اختفى القناع، ظل روحاً، بلا عمر ولكن ليس خارج الزمن، بما أن هذه السيماء، هي ما كنت أراه، ملازماً لوجهها، كل يوم من حياتها المديدة.

من الجائز أن السيماء هي في النهاية شيء معنوي، تحمل للوجه، بغموض، انعكاساً لقيمة الحياة؟ صور أفيدون الزعيم العمالي الأمريكي، فيليب راندولف Philip Randolph (الذي توفي وأنا أكتب هذه الأسطر). أقرأ في الصورة سيماء "الطيبة" (ما من نزوع إلى السلطة: هذا أكيد). وهكذا فالسيماء هي الظل المنير الذي يصاحب الجسد، وإن لم تتمكن الصورة من إظهار هذه السيماء، يمضي الجسد إذن دون ظل، وبمجرد أن يبتتر هذا الظل، مثلاً في أسطورة المرأة بلا ظل، لا يبقى أكثر من جسد عقيم. ومن خلال ذلك الحبل السري الرقيق يعطى المصور الحياة. لو لم يعرف، سواء لنقص موهبته أو لسوء حظه، كيف يعطى الظل المنير للروح الشفافة، تموت الذات إلى الأبد. لقد تم تصويري آلاف المرات، ولكن لو أن كل واحد من هؤلاء الآلاف من المصورين أخطأ سيمائي (ومن الجائز، بعد كل ذلك، ألا يكون لدى سيماء!)، تخد صورتي هويتي وليس قيمتي (فالزمن، محدود مع ذلك، بفترة وجود الورقة). وتطبيقاً على من نحبهم، هذه المخاطرة ممرقة. قد أكون محروماً مدى الحياة من "الصورة الحقيقية". بما أن نادار لم يصور أمي ولا أفيدون فقد اعتمد بقاء هذه الصورة على صدفة مشهد التقطه مصور قروي، وسيط لامبال، مات هو نفسه فيما بعد، ولم يعرف أن ما رسّخه، كان الحقيقة، الحقيقة بالنسبة لي.

- ٤٦ -

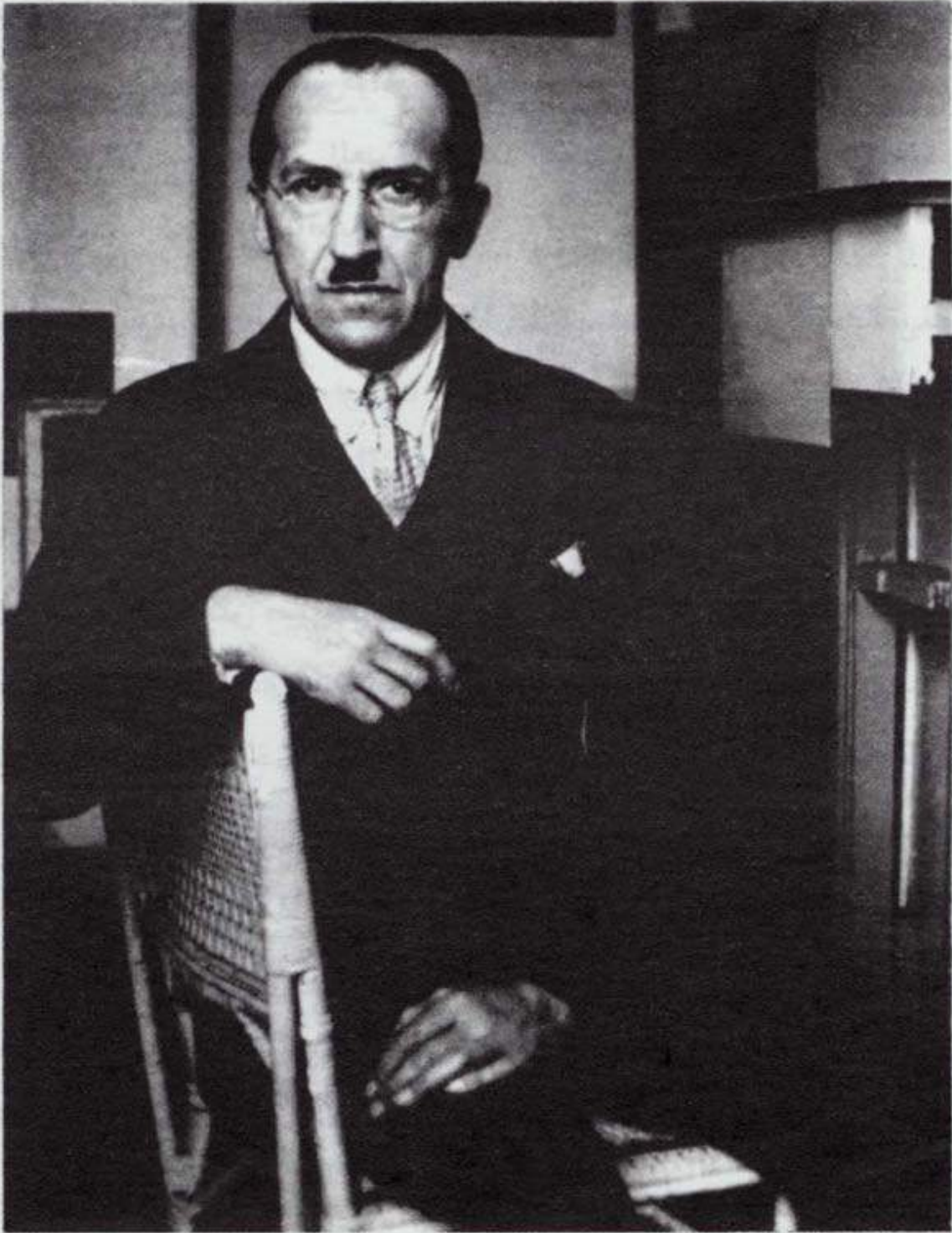
في محاولة لإلزامي بالتعليق على صور تحقيق صحفي عن "الطواري"، كنت أمزق أولاً بأول الملاحظات التي سجلتها. ماذا، لا شيء يقال عن الموت، عن الانتحار، عن الجرح، عن الحادثة؟ لا، لا شيء يقال عن هذه الصور التي أرى فيها معاطف بيضاء،

نقالات، أجساد ممددة على الأرض، شظايا زجاج، إلخ. آه، لو فقط كانت هناك نظرة، نظرة ذات، لو أن أحداً، في الصورة، كان ينظر إلى! لأن الصورة لها هذه القدرة، أن تفتقد أكثر فاكثر الوضع الأمامي (المواجه للكاميرا) الذي غالباً ما حكم عليه بأنه قديم وبالي- أن يُنظر إلى مباشرة في العين (ها هنا أيضاً اختلاف جديد، في الفيلم، لا أحد ينظر إلى أبداً، هذا ممنوع ، بالخيال).

النظرة الفوتوغرافية بها شيء من المفارقة نجدها أحياناً في الحياة، منذ بضعة أيام، في المقهى، كان هناك فتى، وحيداً يجول ببصره في القاعة. أحياناً كان نظره يقع على، تيقنت حينها أنه كان ينظر إلى دون التأكد مع ذلك أنه رأى. تشوّه لا يُتصور، كيف ننظر بدون أن نرى؟ يبدو أن الفوتوغرافيا تفصل الانتباه عن الإدراك، ولا تطرح سوى الأول، حتى وإن كان مستحيلاً دون الثاني. هذا الأمر شاذ، فعل التفكير *noëse* دون تعيين جوهر، فعل التفكير بلا فكر، مقصد بلا هدف. غير أن هذه الحركة الفاضحة هي التي تبرز الخاصية الأكثر ندرة للسيماء. تلك هي المفارقة: كيف يمكننا امتلاك سيماء ذكية دون التفكير في أي شيء ذكي، بالنظر إلى هذه القطعة من الباكليت الأسود^(٥٢)؟ وذلك أن النظرة، عندما تتخلص من الرؤية، يستبقها فيما يبدو شيء ما من الداخل. هذا الصبي الصغير الفقير الذي يمسك بكلب وليد في يديه ويميل بخذه نحوه (كيرتينز، ١٩٢٨)، ينظر إلى العدسة بعيونه الحزينة، الفيورة، الخائفة. يا لها من فكرة مثيرة للشفقة، مُمرّقة! في الواقع هو لا ينظر إلى شيء، يستبقى في دخيلة نفسه حبه وخوفه، تلك هي النظرة.

والحال أن النظرة، لو أنها ألحّت (بالأحرى لو دامت، واجتازت الزمن مع الصورة)، هي دائماً مجنونة افتراضياً، في نفس الوقت الذي هي فيه نتاج الحقيقة،

(٥٢) البلاستيك الصلب الذي تصنع منه أبواب التصوير . (المترجمة)



" كيف يمكننا امتلاك سيماء ذكية بدون التفكير فى أى شىء ذكى؟ ... "

أ. كيرتيز A.Kertesz. بيى موندريان Piet Mondrian

فى الاستديو الخاص به. باريس، ١٩٢٦



" لا ينظر إلى شيء؛ يستبقى في دخيلة نفسه حبه وخوفه: تلك هي النظرة..."

أ. كيرتيز A.Kertész، الجرو، باريس، ١٩٢٨ .

هي نتاج الجنون. في عام ١٨٨١، بإيحاء من روح علمية جميلة وأثناء إجراء تحقيق عن علم فراسة المرضى، نشر جالتون Galton ومحمد Mohamed لوحات لوجوه، يستخلص منها بالطبع، أن المرض لا يمكن أن يُقرأ. ولكن بما أن جميع هؤلاء المرضى مازالوا ينظرون إليّ، لما يقرب من المئة عام، لديّ، أنا، الفكرة المعاكسة، أن أي شخص ينظر مباشرة في العين يعد مجنوناً.

هكذا سيصبح "قَدَر" الفوتوغرافيا، بجعلني أعتقد أنني وجدت "الصورة الحقيقية الكاملة"^(٥٢) (هذا حقيقي، مرة من بين كمّ من المرات؟)، تحقق الاختلاط الغريب للواقع "ذلك - كان - موجوداً" وللحقيقة "ذلك هو!"; تصبح في نفس الوقت إثباتية وتعجبية. تنقلنا الصورة إلى هذه النقطة المجنونة حيث العاطفة (الحب، التعاطف، الحزن، الحميّة، الرغبة) هي ضمان للوجود. تقترب الصورة إذن، بالفعل، من الجنون، تلحق "بالحقيقة المجنونة"^(٥٤).

- ٤٧ -

جوهر الفوتوغرافيا بسيط، مألوف، ليس فيه عمق، "ذلك - كان - موجوداً". أعرف نقادنا، ماذا! كتاب بأكمله (حتى لو مختصراً) لاكتشاف ذلك الذي كنت أعرفه منذ النظرة الأولى؟ نعم، ولكن أمراً بديهياً كهذا يمكن أن يكون قريباً للجنون. الصورة جليلة، ممتدة، مُثقلة، كما لو أنها تشوّه بشكل هزلي، لا شكل ما تمثله (هو على العكس تماماً) بل وجوده نفسه. الصورة، تقول الفينومينولوجيا، هي إلغاء للموضوع. بيد أن،

(٥٢) كالفينو Calvino.

(٥٤) كريستيفا Kristeva، ريبيت Ribettes.

فى الفوتوغرافيا، ما أطره ليس فقط غياب الموضوع، هو أيضاً بنفس الحراك، وبالتساوى، وجود هذا الموضوع بالفعل، وأنه كان هنا حيث أراه. وهنا يكمن الجنون، لأنه حتى هذا اليوم، لم يوجد تمثيل استطاع أن يثبت لى ماضى الشىء، إلا من خلال بعض الإحالات. ولكن مع الفوتوغرافيا، يقينى يكون مباشراً: لا يوجد أحد فى العالم يمكن له أن يضلنى. تصبح الصورة إذن بالنسبة لى وسيطاً غريباً، شكلاً جديداً من الهلوسة، زائفة على مستوى الإدراك، حقيقية على مستوى الزمن. هلوسة معتدلة، بشكل ما، متواضعة، مقسمة (من ناحية "هذا ليس هنا"، من ناحية أخرى "ولكن هذا كان حقاً موجوداً") صورة مجنونة، محفوفة بالواقع.

أحاول أن أستخلص خصوصية تلك الهلوسة، فأجد ما يلى: فى نفس ليلة اليوم الذى كنت لا أزال أتطلع فيه لصور أمى، ذهبت لأشاهد، مع أصدقاء لى، فيلم كازانوفافى لفلينى. كنت حزينا، كان الفيلم يشعرنى بالملل، ولكن عندما شرع كازانوفافى الرقص مع العروسة الآلية، تعلقت عيونى بنوع من الجدة المؤلة والعذبة، كما لو أننى شعرت مرة واحدة بتأثيرات عقار غريب. كل تفصيلة، كنت أراها بدقة، أتتوقها، لو يمكننى القول، حتى أقصى مدى فيها، قلبت كيانى رأساً على عقب. النحافة، رقة قوام السلويت، كما لو لم يوجد إلا بعض من جسد تحت الرداء المسطح، القفازات مجمدة بخيط حريرى أبيض، الريش الخفيف المضحك المزين للرأس (لكنه مسنى)، هذا الوجه المطلق غير أنه متفرد، برىء، شىء خامد لدرجة تدعو إلى اليأس ومع ذلك متاح، معروض، جاذب، وفقاً لحركة ملائكية "للإرادة الطيبة". كنت أفكر إذن بلا مقاومة فى الفوتوغرافيا، لأن كل ذلك، أستطيع قوله عن الصور التى لمستنى (حيث صيغت منها، بمنهجية، الفوتوغرافيا نفسها).

اعتقدت أننى فهمت أن هناك نوعاً من الرباط (من العقدة) بين الفوتوغرافيا والجنون وشىء ما لم أعرف له اسماً. بدأت بأن أسميته: معاناة الحب. ألم أكن، فى

مجمل القول، مفرماً بشخص فلليني الآلى؟ ألم تكن مفرمين ببعض الصور الفوتوغرافية؟ (بالتطلع إلى صورَ عالم بروست، وقعت فى حب جوليا بارتت Julia Bar- tet، وبق دى جيش De Guiche). إلا أنه، لم يكن بالضبط هذا. كانت موجة أكثر رحابة من شعور الحب. فى الحب الذى أثارته الفوتوغرافيا (بعض الصور)، سُمِعَت موسيقى أخرى، تحمل بغرابة اسماً قديماً: الشفقة. جمعت فى تفكير آخر الصور التى "علّمت" فى نفسى (بما أن ذلك هو فعل البونكتوم)، مثل تلك الزنجية ذات العقد الرقيق، والأحذية ذات الإبريم، تجاوزت من خلال كل واحدة منها، بلا ريب، عدم واقعية الشيء الممثل، دخلت بجنون فى المشهد، فى الصورة، محيطاً بذراعى من مات، ومن سوف يموت، كما فعلها نيتشه^(٥٥)، حينما اندفع فى البكاء، فى الثالث من يناير عام ١٨٨٩، على عنق جواد مقتول، أصبح مجنوناً بسبب الشفقة.

- ٤٨ -

يجتهد المجتمع فى إضفاء الحكمة على الصورة، فى تلطيف الجنون الذى يتوعد بدون توقف بأن ينفجر فى وجه من ينظر إليها. ولذلك، توجد وسيلتان تحت تصرفه. تقوم الأولى على جعل الفوتوغرافيا فناً، لأنه لا يوجد فن مجنون. من هنا يصير المصور على مزاحمة الفنان، بالخضوع لبلاغة اللوحة ولأسلوب العرض الرفيع. يمكن بالفعل أن تكون الفوتوغرافيا فناً، متى لم يعد فيها أى جنون. وبما أن جوهرها تم تناسيه، ونتيجة لذلك لم يعد يؤثر على، هل تتصورون أن أمام متنزّهات الرائد بويو Puyo، أرتبك وأصرخ "ذلك - كان - موجوداً"؟ تشارك السينما فى تدجين

(٥٥) بوداش Podach ، ٩١ .

الفوتوغرافيا. على الأقل السينما الخيالية، تلك التى يطلق عليها بالتحديد الفن السابع، يمكن أن يكون الفيلم مجنوناً بشكل زائف، يعرض العلامات الثقافية للجنون، هو ليس مطلقاً كذلك بالطبيعة (بحالة أيقونية). هو دائماً على النقيض حتى من الهلوسة، هو ببساطة وهم، رؤيته حالة، وليست فاقدة للذاكرة القريبة.

الوسيلة الأخرى لإضفاء الحكمة على الصورة، هى بتعميمها، بتجميعها، بجعلها مألوفة، بحيث لا يكون أمامها أية صورة أخرى يمكن أن تتميز عنها، وتؤكد على خصوصيتها، وفضحتها، وجنونها. ذلك ما يحدث فى مجتمعنا، حيث تسحق الصورة بطغيانها الصور الأخرى. لا نقوش بعد، لا رسومات تصويرية، اللهم إلا من الآن فصاعداً بالخضوع المفتون (والفاتن) للنموذج الفوتوغرافى. أمام الزبائن فى مقهى، قال لى أحدهم عن حق: "انظر كيف أنهم بلا حياة، فى أيامنا الرسومات أكثر حيوية من الناس". قد تكون من إحدى علامات عالمنا، هذا الانقلاب: نحن نعيش وفقاً لمخيلة عامة. انظروا إلى الولايات المتحدة، كل ما هنالك يتحول إلى صور. لا توجد، ولا تنتج ولا تستهلك سوى الصور. إليكم مثال متطرف: ادخلوا إلى علبة ليل فى نيويورك، لن تجدوا الرذيلة، ولكن فقط لوحاتها الحية (التي استمد منها مابلثورب بوعى بعض صوره الفوتوغرافية)، كما لو أن الفرد مجهول الهوية (ليس الممثل بالقطع) الذى يجعل نفسه مقيداً ومجلوداً، لا يدرك متعته إلا إذا ارتبطت هذه المتعة بالصورة النمطية (المبتذلة) للسابو مازوشية: تمر المتعة عبر الصورة. هذا هو التحول الكبير. يثير انقلاب كهذا حتماً السؤال الأخلاقى: ليس لأن الصورة غير أخلاقية ولا لأنها لا دينية أو شيطانية (مثلما صرَّح البعض عند ظهور الفوتوغرافيا)، ولكن لأنها، بوصفها معمة، تنزع الواقعية بشكل كامل عن العالم الإنسانى للصراعات والرغبات، تحت غطاء إظهارها. ما يميز المجتمعات التى يقال عنها متقدمة، هو أن هذه المجتمعات تستهلك اليوم صوراً، ولم تعد، مثل تلك القديمة، تستهلك عقائد. إذن هى مجتمعات أكثر تحراً، وأقل تعصباً، ولكن أيضاً أكثر "زيفاً" (أقل "أصالة")، وهو ما نترجمه فى الوعى

السائد بالاعتراف بتأثير الضجر المثير للفثيان، كما لو أن الصورة، بتعميمها، أنتجت عالمًا بلا اختلافات (غير متمايز). من هنا لا تبرز هنا وهناك إلا صرخة الفوضوية والتهميش والفردية: اجعلونا نلغى الصور، وننقذ الرغبة المباشرة (دون وساطة).

مجنونة أم حكيمة؟ قد تكون الفوتوغرافيا هذا أذاك. حكيمة لو أن واقعيتها تظل نسبية، ومخففة بالعادات الجمالية أو التجريبية (تصفح مجلة في صالون الحلاقة أو لدى طبيب الأسنان). مجنونة، لو أن هذه الواقعية مطلقة، ولو يمكننا القول، أصلية، تعمل على إعادة حُرفية الزمن إلى الوجدان العاشق المرتعب، حركة تقليب صارم، يُحوّل مسار الشيء، سوف أطلق عليها كى أنهى الحديث الوجد الفوتوغرافى.

هذان هما مسلكا الفوتوغرافيا. وعلى الاختيار، إما أن أخضع مشهدها للشفرة المتمدنة للأوهام المثالية، أو أجابه فيها صحوه الواقع العنيد.

١٥ إبريل - ٣ يونيو ١٩٧٩

ثبت بالصور

- دانيال بودينه: بولارويد، ١٩٧٩

- أ. شتيجلتز: محطة عربات الجياد (نيويورك، ١٨٩٣) (متحف الفن الحديث، نيويورك)

- كوين فيسينج: نيكاراجوا، نورية من الصنود تجوب الطرقات، ١٩٧٩

- كوين فيسينج: نيكاراجوا، أهل يكشفون عن جثمان صغيرهم، ١٩٧٩

- وليام كلاين: الأول من مايو في موسكو، ١٩٥٩

- ر. أفيدون: وليام كاسبى، مولود عبدا، ١٩٦٣

- ساندرو: مونتق عقود (معرض ساندرو، واشنطن)

- شارلز كليفورد: الحمرا (غرناطة)، ١٨٥٤-١٨٥٦

- جيمس فان دير زى: بورترية عائلى، ١٩٢٦

- وليام كلاين: الحى الإيطالى، نيويورك، ١٩٥٤

- أ. كيرتيز: لحن عازف الكمان، أبونى، المجر، ١٩٢١

- لويس ه. هاين: أطفال معوقون عقليا في مؤسسة، نيوجيرسى، ١٩٢٤

- نادار: سافورثان دى برازا، ١٨٨٢

- ر. مابلثورب: فيل جلاس ويوب ويلسون

- ج. و. ويلسون: الملكة فيكتوريا، ١٨٦٣ (أعيد طبعها بتصريح من الملكة إليزابيث الثانية)

- ر. مابلثورب: شاب نو نراع منبسط

- نادار: أم الفنان (أو زوجته)

أ. كيرتيز: إرنست. باريس، ١٩٣١

نييس: المائدة المنصوبة، حوالي ١٨٢٢ (متحف نيسيفور Nicéphore، نيس)

الكسندر جاردنر: بورتريه للويس باين، ١٨٦٥

نادر: مارسولين دييور - فالور، ١٨٥٧

الصورة: من مقتنيات المؤلف

ر. أفينيون : أ. فيليب راندولف (العائلة، ١٩٧٦)

أ. كيرتيز: بيبي موندريان في الاستديو الخاص به، باريس، ١٩٢٦

أ. كيرتيز: الجرو، باريس، ١٩٢٨

أسماء المصورين المذكورين

أبستيغي Apestéguy،

أفيدون R.Avedon،

أوجين أتجي Eugène Atget،

بيير بوشيه Pierre Boucher،

دانيال بودينيه Daniel Boudinet،

شارل كليفورد Charles Clifford،

داجير Daguerre،

دوان ميشال Duane Michals،

هارولد د. إدجرتون Harold D. Edgerton،

الكسندر جاردنر Alexander Gardner،

بروس جيلدن Bruce Gilden،

لويس هـ. هين Lewis H.Hine،

كيرتيز A.Kertész،

وليام كلاين William Klein،

جيرمان كرول Germain Krull،

لاریج Larigue،

مابلثورپ R.Mapplethorpe،

نادار Nadar،

نیپس Niepce،

بویو Puyo،

اوجست سیلزمان August Salzman،

ساندر Sander،

ا.شتیگلitz A.Stieglitz،

جیمس فان دیر زی James Van der Zee،

کون فیسینج Koen Wessing،

ج. و. ویلسون G.W.Wilson،